


الكتاب العربي السعودي ١١

احمد محمد جمال

# نحو تربية إسلامية

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م




الكتاب العربي السعودي ١١

أحمد محمد جمال




الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

# مباحث الكتاب


المقدمـــة ........................................ ٧

التمهـــيد ........................................ ١٣

**الفصـــل الأول :**

اهتمام الاسلام التربوى بالطفولة ........................ ٢٠

مسؤولية الآباء والأمهات التربوية ........................ ٣٠

من وسائل الآباء فى تربية أبنائهم ........................ ٤٠

نماذج من رجال التربية والتعليم القُدامى ........................ ٤٦

**الفصـــل الثانى :**

أثر العقيدة فى نجاح التربية ........................ ٥٥

التربية والتعليم فى المنهج القرآنى ........................ ٦٠

التربية الذاتية تعنى الاهتمام بالغير ........................ ٦٨

نحو علم نفس إسلامى ........................ ٧٣

**الفصـــل الثالث :**

المعلِّم يجب أن يكون أباً لطلابه ........................ ٨٣

ألوان من أخطاء المدرسين ........................ ٩٣

باسم التربية الحديثة يفسدون الشباب ........................ ٩٨

سياسة العصى . . وتراجعات الغربيِّين ........................ ١٠٤

**الفصـــل الرابع :**

**حـــوار مع المعلمين والطـلاب حـول :**

الكيف قبل الكم فى التربية الاسلامية ........................ ١١٣

التربية الاسلامية . . . مثالية أم واقعية ........................ ١١٧

التعلُّم الذاتى . . مفهومُهُ وغايتُهُ ........................ ١٢٠

المطلوب فى المعلم : الأخلاق مع الثقافة ........................ ١٢٤



# المقدمة

كان لى شرف المشاركة فى مؤتمر التربية الإسلامية الذى انعقد بشطر جامعة الملك عبدالعزيز فى مكة المكرمة ابتداء من اليوم العاشر من شهر جمادى الثانية سنة ( ١٤٠٠ هـ ) .

وفى الاجتماع الأول - بعد يوم الافتتاح - لخَص كلٌ من المحاضرين بحثه فى حدود نصف ساعةٍ ، ثم يجرى حوارٌ مع الحضور بين اعتراضٍ وتأييدٍ .

وبعد ان انتهى كلٌ من الأستاذين الجليلين محمد الغزالى ومحمد قطب من التلخيص والحوار - جاء دورى فأوجزت بحثى فى موضوع التربية الاسلامية فى الفقرات التالية :

أولا : قلت أنه يجب التفريق بين الدعوة الاسلامية وبين التربية الإسلامية فهناك بعض الباحثين فى موضوع التربية الإسلامية يجمعون بينها وبين ( الدعوة الاسلامية ) وهما موضوعان مختلفان ، أوقضيتان يختلف مجال كلٍ منهما عن الآخر .

فالتربية الأسلامية مجالها وتربيتها الناشئة والصبية والشباب ابتداء من البيت فالمدرسة فالمجتمع . وقد جاء القرآن الكريم وجاء الحديث النبوى بمنهجٍ واضح ، ونصوصٍ صريحة فى هذا الموضوع . .

من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودُها الناسُ والحجارة ﴾ وقولهُ أيضاً ﴿ وأمرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها . . لانسألك رزقاً نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى . . ﴾ وقوله : ﴿ والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعينٍ . . ﴾ وقوله : ﴿ والذين آمنوا واتّبعتهمْ ذريتهُم بإيمانٍ ألحْقنا بهم ذريَّتهَم ، وما ألَتْنَاهم من عملهم من شيءٍ - كلُّ امرىءٍ بما كسب رهين ﴾ الخ . .

وهناك قصة نوح مع ابنه ، ووصايا لقمان لولده . فهذه الآيات والقصص القرآنية وأمثالها ترسم المنهج القرآني لتربية الناشئة أوالصبية . . من أجل أن يكونوا صالحين ، أى قرة أعينٍ لآبائهم وأمهاتهم .

ولفظة ( الأهل ) فى الآيات السابقة تعنى الأولاد فى المقدمة ثم الزوجات . أوبمعنى جامع : ( البيت ) و ( الأسرة ) وحسبنا قول نوح عليه السلام فيما يحكيه القرآن : ﴿ إن ابنى من أهلى وان وعدك الحق . . ﴾

وأمثلة الاهتمام النبوىّ بتربية الناشئة والصبية والشباب كثيرة منها قوله ﷺ : ( مُرُوا أولادكم بالصلاةِ لسبعٍ ، واضربوهم عليها لِعَشْرٍ ، وفَرِّقوا بينهم فى المضاجع ) وقوله : ( إلزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم ) وقوله : ( مانحَلَ والدٌ ولدَه نِحلةً أفضلَ من أدبٍ حَسَن ) وقوله للأم التى وعدت طفلها بأن تعطيه ثمرةً : ( أما إنك لو لم تُعْطِه لكتبت عليك كذبة ) الخ .

● ● ●

أما مجال ( الدعوة الإسلامية ) فهى المجتمعات الفاسدة أو المنحرفة ، حيث يبعث الله عز وجل الرُسُلَ والانبياء لإصلاحها وتقويمها فى عقائدها وشرائعها وأخلاقها بما يُنزل على الأنبياء والرسل من كُتُب ، وبما يتحدَّث به هؤلاء الأنبياء والرسل من أوامر وزواجر .

ويَتْبَعُ الرسلُ والأنبياء بعد موتهم الدُعاةُ والمصلحون . . حيث يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويذكرون الناس بالله وحقِّه عليهم من توحيده بالعبادة والطاعة وتنفيذَ شريعته .

لذلك يجب أن لاتخلط أبحاثُنا ودراساتُنا وقراراتُنا ـ فى نهاية المؤتمر ـ بين التربية وبين الدعوة . فمهمتنا أن نبحث فى الوسائل والمناهج الاسلامية الخاصة بتربية الأطفال والصبية والشباب ، وواجب الآباء أو الأمهات ، ومسؤولية المدرسة والجامعة والمجتمع عن الحفاظ على هؤلاء ( فلذات الأكباد ) أنقياءَ أصفياءَ من غواشى الأفكار السيِّئة ، والأخلاق المنحرفة .

ثانيا: التربية الاسلامية لاتتفق فى مفهومها وموضوعها مع مصطلح التربية الحديثة بأنها « إحداث تغيير فى سلوك الفرد » . وإنما هى حفاظٌ وصِيانٌ لِفطرة الطفل والصبىِّ والشباب ، وإكسابها مايتفق معها من إيمانٍ وإحسان ، وإبعادِ الحواجز عنها وتقريب الحوافز إليها .

وإذا حدث فى سلوك الطفل أوالصبىِّ أوالشاب ـ أوحتى الرجل ـ إنحراف أواعوجاج . . فإصلاحه أو تقْوِيمه ليس تغييراً لسلوكه ، وإنما هو إعادة له إلى الفطرةِ النقِّية الصافية .

وحسبنا هنا تدليلاً على وجهة نظرنا في مفهوم التربية الاسلامية ما تحدث به الملاح الفضائي الروسي (شونين) إلى مجلة ألمانية عن شعوره وهو في سفينة الفضاء لأول مرة ــ حيث قال: رغم أنني شيوعي ملحد إلا أنني فوق... صليت للرب حتى أعود من الرحلة بسلام!

فهذا يعني صفاء فطرته في تلك اللحظة الرهيبة.. على الرغم من تراكم أكاذيب الشيوعية الملحدة وأباطيلها على ذهنه وقلبه سنوات طوالاً .

ثالثاً : ليس فى الاسلام مايطلق عليه العصريون ( نظريةً تربوية ) وإنما تربية الاسلام عمليَةٌ وليست نظريةً . . شأنه فى ذلك هو شأنه فى كل مناهجه الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والتعليمية ، والعسكرية ، فيجب أن نطلق عليها : « عملية التربية الاسلامية » .

فالإسلام دائماً يوجِّه إلى ( العمل ) ويرتب الجزاء على العمل ، ويمقت المتكلمين الذين لايعملون ـ فى القرآن يقول الله عز وجل : ﴿ وقل اعملوا . . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ ويقول أيضاً : ﴿ ياأيها الذين آمنوا . . لم تقولون مالاتفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالاتفعلون ﴾ ويقول تبارك : ﴿ ليس بأمانيكُم ولاأمانِّى أهل الكتاب : من يعملْ سوءً يجزيه . . ﴾ إلخ .

وفى الحديث النبوى : ( ليس الايمان بالتمنىً . . ولكن ماوقَرَ فى القلب وصدَّقه العمل ) وفيه أيضاً : ( قل آمنت بالله ثم استقم ) إلخ .

رابعاً : من مظاهر ( عملية ) التربية الإسلامية : تركيز المنهج التربوى الاسلامى على المطالبة للآباء والأمهات والمُعلمين والمعلمات بإعطاء القدوة من أنفسهم لمن يربونهم ويعلمونهم ، وقد أسلفنا قصة الأم التى وعدت طفلها بإعطائه ثمرةً . وكيف ألقى عليها الرسول عليه الصلاة والسلام درساً فى القدوة الحسنة .

ومن هذه المظاهر العملية فى منهج التربية الاسلامية : مواجهة الخطأ والانحراف حال وقوعها بالإرشاد العملى . فقد رأى ﷺ غلاماً تطيش يده فى آنية الطعام ؛ فأرشده فوراً : ( ياغلام ـ سمِّ الله ، وكُلْ بيمينِك ، وكُلْ مما يليك ) [1] .

---

( ١ ) الغلام هو عمر بن ابى سلمة ـ والحديث رواه الامام البخارى

ومنها : الحوار والاقناع ـ كما فعل ﷺ مع الشابَ الذى جاءه يستأذنه فى الزنا ، فزَجَره الصحابة ، ولكن الرسول المعلم الحكيم ، والمربى الرءوف الرحيم أدْناه منه ، وجعل يحاوره : ( أتحبّهْ لأمِّك ؟ قال : لايارسول الله جعلنىَ الله فداك ـ قال : وكذلك الناس لايحبونه لأمهاتهم . ومضى الرسول عليه الصلاة والسلام يسأله : أتحبُّه لابنتك ؟ أتحبُّه لأختك ؟ أتحبُّه لعمتك ؟ أتحبُّه لخالتك ـ وكان الشابُ يجيب الجوابَ نفسَه : ويعقب الرسولُ عليه التعقيبَ ذاتَه . حتى أقنعه ثم دعا له : اللهم أهْدِ قلبهَ ، واغفرْ ذنبَه ، واحصن فرْجَه ـ فقام الشابُ من عنده ﷺ أكْرَهَ ما يكون لهذه الفاحشة المنكرة .

وقد هجرنا نحن المسلمين هذا الأسلوب العمليَ فى منهج التربية الاسلامية والدعوة الاسلامية أيضاً ، واختلسه منا رجال التربية المسيحية فى تنصير أطفال المسلمين وشبابهم . . بما يقدِّمون لهم من غذاءٍ وكساءٍ ودواءٍ وثقافةٍ عَبْرَ مستشفياتِهم ومدارسهم ومطاعمهم وأنديتهم .

أما الدعاة والمربون المسلمون . . فليس معهم إلا الكلام عن محاسن الاسلام عَبْر خطبِ الجمعة ، والمؤتمرات وقراراتها وتوصياتها !

وعملية التربية الاسلامية تؤكد : مسؤولية الآباء والأمهات الأولى والعظمى عن نجاح تربية أولادهم او فشلها . وقد أسلفنا بعض التوجيهات القرآنية والنبوية فى هذه المجال فى مقدمة هذا الملخَص . ونكتفى بقوله ﷺ : ( كلُ مولودٍ يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرَّانه ، أويمجِّسانِه . [1] ) فالوالدان هما العماد الأول ، والأساس الأول فى إصلاح الأولاد أو إفسادهم .

كما تؤكد عملية التربية الاسلامية : مسؤوليةَ المعلم والمعلمة تجاه الناشئة والصِبْية ، وتضعهما فى مقام وَرثة الأنبياء ـ يقول ﷺ : ( العلماء ورثة الأنبياء . [2] ) ولاشك أن المعلمين والمعلمات من العلماء والأَماطِلبَ

---

( ١ ) رواه البخارى .

( ٢ ) رواه احمد .

منهم تعليمُ غيرْهِم ماحصَلَوُا عليه من علومٍ ومعارفَ فى مجالات مختلفة . . من شؤون الحياة ومطالبهَا ومنافعها . .

ولا أعرف حجةً لمن يحَبْس معنى ( العلماء ) فى الحديث النبوى على علماء الدين وحدهم ، فهو عندى يشمل كل العلماء الذين ينفعون الناس بعلومهم والخَلْقَ كما جاء فى حديثٍ نبوىٍ آخر - عيالْ الله ، وأحبهم إلى الله أنفعْهم لعياله » فالأطباء والمهندسون وخبراء الاقتصاد والتربية والتعليم والاجتماع . . كلهم ورثة الأنبياء إذا اقترنت علومهم ومعارفهم بالايمان بالله ، والاحسان إلى الناس .

وحسبنا فى الختام قوله ﷺ : « إنما بعثتُ معلماً »[1] وقوله أيضا : « إنما بعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق »[2] .

أحمد محمد جمال

١٤٠٠/٦/١٠ هـ
١٩٨٠/٤/٢٥ م

---

( ١ ) سنن ابن ماجة .
( ٢ ) مسند الامام احمد .

# تمهيد

بقلم الدكتور **محمد عبدالله الغامدى**
مدير مركز البحوث التربوية والنفسية

حينما جاء الاسلام كدين سماوى يهدى البشرية الى الصراط المستقيم جاء شاملا لكل أمور الدنيا والآخرة . واتسم هذا الدين بالشمول فى كل جوانبه وأبعاده ، فشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والعبادة والتربية .

واستوعبه المسلمون الأوائل بالفطرة التى فطر الله الناس عليها « **فطرة الله** التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

وانطلقوا فى الدنيا يطبقون مفاهيمه ويؤدون تعاليمه وفرائضه وكل مافيهم من امكانية بشرية قد تشربت بروحه العالية . . فتصرفت فى كل أمور الدنيا بهذه الروح فجاءت تصرفاتهم أمثلة نادرة على استخدام كل ما وهبنا الله أياه من عقل ونفس وروح وجسم .

وعاش الاسلام متجددا مع تجدد الحياة ونموها متجاوبا مع مطالب التجدد والتغير والاستمرار .

وخاصية التجديد لاتضيف جديدا إلى العقيدة ولا الى جوهر الاسلام ولا الى فرائضه وتشريعاته . وانما تضيف جديدا باستمرار فى التفسير والفهم وفقا لمتطلبات التغير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية باستمرار .

وفى حديث شريف يؤكد هذا المعنى بقول ﷺ « يبدأ تفسير القرآن بعصرى ويستمر إلى أن تقوم الساعة » .

وهكذا نجد أن كل عصر يعطى للاسلام فهما متجددا لايخل بجوهره ولابعقيدته ولابتشريعاته ولابفرائضه كما ذكرنا . وإنما يكون هذا الفهم المتجدد نتيجة لنمو الحياة ولنمو الانسان فى تفاعلاته مع مفاهيم هذا الدين ومعطياته .

وهنا نجد الاسلام أكبر الأديان مسايرة للتغير . واستيعاباً لمتطلبات كل عصر من العصور ، واكبرها احتضانا لكل اجتهاد بشرى لايخل بأساسياته وبعقيدته .

ولذلك فان كل اجتهاد من علمائنا للوقوف بنا عند عصر من العصور وعند مرحلة من المراحل فى التاريخ الاسلامى أمر يظهر هذا الدين وكأنه يشد الناس باستمرار الى الماضى وإلى التاريخ .

وليس معنى هذا أن التاريخ غير مفيد . بالعكس هو مفيد فى القياس وفى بث الثقة بالنفس فى مواجهة أمور الحياة المتجددة والمتغيرة التى تفرض علينا التصرف والحل بروح الاسلام .

وبهذه الروح يمكن النظر إلى أمور الحياة ومنها التربية . فالتربية هى التناول الواعى للانسان وللجماعة لتنشئتها على الاسلام عقيدة وعبادة وسلوكا وروحا . . تنشئة علمية وعملية . . تنشئة فكرية وسلوكية. . تنشئة تتمثل كل معطيات الاسلام ومتغيرات العصر ومتطلباته واجتهاداته .

تربية تعمل على تزويد الانسان بعقيدة دينية وترسخ هذه العقيدة فى نفسه بحيث تصبح جزءاً من تكوينه الكلى وتقدم للانسان قيما ومثلا عليا تهدى سلوكه فى حياته . فهى تحثه على الصدق وتدفعه إلى عمل الخير وتأمره بالعفو والمعروف وتشجعه على الصبر وتطلب منه أن يكون أمينا وفيا بالعهود .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا نراه عملا تربوياً وجهداً علمياً قيما من كاتب اسلامى معاصر ومعروف خدم الاسلام فكرا وعملا . . تجلى ذلك فيما لفضيلته من مؤلفات وبحوث وكتابات أسهمت اسهاما علميا وأدبيا فى معالجته لكثير من



# نَحْوَ تَرْبِيَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ



# الفصل الأول

- اهتمام الإسلام التربوي بالطفولة..
- مسؤولية الآباء والأمهات التربوية..
- من وسائل الآباء في تربية أبنائهم..
- نماذج من رجال التربية والتعليم القدامى..

# اهتمام الإسلام التربوي بالطفولة ..

نشير ـ في البداية ـ الى المؤتمر الثامن الذى انعقد فى ميلانو بايطاليا بدعوة من منظمة الأمم المتحدة .. على أن يكون عام ١٩٧٩ ( عام الطفل ) واشتركت فيه ( ٤٨ ) دولة منها ( ١١ ) دولة عربية على رأسها المملكة العربية السعودية .

ويأتى هذا المؤتمر دليلا جديدا على اهتمام العالم بواقع الطفولة المؤسف ، ورغبة المنظمات الدولية المختصة بشؤون التربية والتعليم والصحة فى حل مشكلات الأطفال ، وتخفيف ما يعانون من متاعب ، وما يقاسون من ضياع بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى اوقعهم فيها التطور الحضارى الحديث .

وقد طرحت فى المؤتمر أبحاث ودراسات متعددة : عن ازدحام المدن الكبرى بالمنازل والعمارات السكنية ، وقلة الملاعب والحدائق ومساحات الفضاء اللازمة للطفولة ، والمساعدة على نموهم الجسدى والنفسى والاجتماعى ..

وتناول بعض هذه الابحاث افتقاد العلاقة الاجتماعية بين الأطفال أنفسهم .. فهى لا تتعدى محيط الأسرة وحدها مما يجعل الطفل محدود التفكير ..

وهناك مشكلة تغذية الأطفال التى اصبحت تعتمد اعتمادا كليا على الأطعمة المعلبة .. الى جانب الأجواء الصحية الموبوءة فى المدن الكبرى ..

● وكان أهم ما قدم من دراسات وأبحاث فى المؤتمر : ظاهرة انصراف الأمهات الى العمل خارج المنزل ، وترك رعاية الأطفال للمربيات والخوادم ودور

الحضانة .. وملاحظة أن مستوى هذا البديل ليس كما يجب مما يؤثر على المستوى الأخلاقى للاطفال ، ويحرمهم التوجيه التربوى السليم .

ويلحق بهذه الظاهرة ما ثبت من انتشار المشكلات والجرائم الأخلاقية ، وظهور عصابات الانحراف بين الأطفال والشباب فى مدن أوروبا وأمريكا .. بسبب تدهور اوضاع الأسرة وتفككها فى هذه المجتمعات مما أدى الى ضياع الطفل (١) .

وحسبنا هنا : أن يضع المؤتمرون أيديهم على حقيقة مأساة الطفولة فى العالم ، والسبب الرئيسى لمشكلاتها وآلامها وضياعها .. وهو هجر الأمهات للبيت وترك مهمة التوجيه والتربية للحواضن والخوادم والمربيات الأجنبيات (٢) وقد ضربوا المثل الواقعى الملموس بأطفال اوروبا وامريكا الذين افتقدوا جو الأسرة المتماسكة ، وحمى الأمومة الحصين .

● أفليس من حقنا نحن المسلمين ان نذكر هنا ـ ونفخر فى الوقت نفسه ـ أن الاسلام فى قرآنه وسنة رسوله ﷺ شدد وركز على حق الطفل فى توجيه أبيه وتربية أمه حتى يبلغ رشده ، ويصل الى سن الشباب المدرك الواعى لمنافعه ومضاره ؟

● أليس من حقنا نحن المسلمين أن نذكر ـ ونفخر فى الوقت نفسه ـ أن الاسلام فى قرآنه وسنة رسوله ﷺ قد شدد وركز على واجب الأبوين فى الالتزام برعاية اولادهما واحسان أدبهم ، الى جانب تعظيم شأن الأم لتهتم بأطفالها حنانا ورفقا وتوجيها ، ليهتموا هم بها فيما بعد طاعة وإحسانا وبرا ؟

لقد أوجب الاسلام على الطرفين حقوقا متساوية فكما أوجب بر الأبناء بالوالدين ـ اوجب كذلك رعاية الآباء لأولادهم ذكورا وإناثا ، والصبر على

---

( ١ ) فى عام سابق انعقد فى بريطانيا مؤتمر دولى لبحث ظاهرة الاجرام بين الاطفال .

( ٢ ) الاجنبيات : اى غير الامهات والخالات والعمات

تربيتهم وتأديبهم . لقد الزم الاسلام الأبناء فى قول الله عز وجل بحق الأبوة والأمومة :﴿ وبالوالدين احسانا ﴾ كما ألزم الآباء والأمهات فى الوقت ذاته بحق البنوة فى قوله ﷺ ( ألزموا اولادكم وأحسنوا أدبهم ) . وقوله ايضا : ( حق الولد على والده ان يحسن اسمه وأدبه ، وان يعلمه الكتابة والسباحة والرماية ، والا يرزقه الا طيبا .. )

ونلاحظ هنا توجيه التربية النبوية الى ضرورة اختيار الأسماء الجميلة لأطفالنا لئلا يُعَيَّروا من لداتهم اذا كان الاسم مثيرا للضحك او للتشاؤم ..

وقد اختار الاسلام - فى منهجه التربوى الاجتماعى - للمرأة مجال عملها الاساسى .. فى البيت لتقيم أسرة سعيدة مجيدة ترعى فيها الزوج وتربى الولد . وها نحن نرى فى مجتمعات أوروبا وأمريكا : تفكك الأسرة ، وتشرد الأطفال بسبب خروج الأمهات للعمل فى المكاتب والمتاجر كأزواجهن على سواء ..

ان مؤتمر ( عام الطفل ) هذا الذى اجتمع فى ايطاليا حجة لنا نحن المسلمين لكى نعود بالهاربين منا عن منهج الاسلام التربوى فى مجال الأسرة والطفولة والشباب - ولكى نقول لهم : هذه بضاعتنا ردت الينا ، فما اكثر ما دعونا وнادينا بالعودة إلى النظام الاسلامى فى مجال التربية والتعليم خلال ربع قرن أو يزيد ..

أما ما تصدت له دراسات المؤتمر ومقرراته من ملاحظات على اوضاع الأطفال .. وسوء التعامل بينهم و بين الكبار - فحسبنا ان المنهج الإسلامى لرعاية الطفولة : قد وجه الكبار الى إحسان التعامل معهم ، وملاطفتهم واحترامهم . كإلقاء التحية إليهم ، والامتناع عن الكذب عليهم ، وتحريم قتل اطفال العدو .. اذا كنا فى حرب معه .

لقد كان ﷺ ( اذا مر بالصبيان سلم عليهم ) [1] وكان ينهى قادة الجيوش الاسلامية وعامة الجند عن قتل اطفال العدو حفظا لأرواحهم ، واعترافا

---

( ١ ) متفق عليه .

بطفولتهم البريئة ، كما وجه ذات يوم أما ألاّ تكذب على طفلها ، فان الكذب على الصغار إثم تؤاخذ عليه كالكذب على الكبار بلا اختلاف : ( أما إنك لو لم تعطه كتبت عليك كذبة ) .

وأجل الرسول ﷺ اقامة حد الزنا على المرأة الحامل حتى تضع حملها ، فلما وضعته أجله حتى تتم رضاعته ، ويستطيع الأكل والاستغناء عن ثديها .

واوجب قانون الحضانة الإسلامى : أن الأم احق بطفلها فى حالة طلاقها أو وفاة أبيه لأنها أرفق به وأكثر رعاية له ، ولأن الأب لو كان حيا مشغولا بعمله وكسبه . وفى حالة زواجها بآخر ـ أو وفاتها ـ فأمها أحق بالطفل ثم أم الأب بعدها . وهكذا اختير النساء لحضانة الأطفال لأنهن أرق افئدة من الرجال ، كما اختيرت قريبات الزوجة بعدها .. لأنهن أكثر عاطفة نحوهم من قريبات الزوج .

ليس هذا فحسب .. بل هناك نماذج من رعاية الاسلام ( للطفولة ) باعتبارها بداية ( الرجولة ) وأساسها الذى اذا صلح صلحت واذا فسد فسدت ، واذا قوى استقامت ، واذا ضعف انحرفت ..

قدمت الى المدينة المنورة قافلة من التجار وفيها النساء والأطفال . فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما : هل لك ان تحرسهم هذه الليلة ؟ فباتا يحرسانهم . ويصليان ما كتب الله لهما .

فسمع عمر بكاء صبى فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله واحسنى الى صبيك . ثم عاد الى مكانه ، فسمع بكاءه فعاد الى امه فقال : اتقى الله واحسنى الى صبيك ثم عاد الى مكانه . فلما كان آخر الليل سمع بكاءه ايضا فقال : ويحك إنى لا أراك أم سوء ؟ ما لى أرى ابنك لا يقر منذ الليل ؟

قالت وهى لا تعرف انه أمير المؤمنين : يا عبد الله لقد أبرمتنى منذ الليلة . إنى أحمله على الطعام فيأبى ) قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض الا للفطيم ( اى لا يعطى للآباء عن أولادهم الا من فطم ) قال : وكم له ؟ قالت :

كذا وكذا شهرا قال : ويحك لا تعجليه . ثم صلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر كم قتل من اولاد المسلمين ـ ثم أمر مناديا فنادى ان لا تُعْجِلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود فى الاسلام ، وكتب بذلك الى أمراء الآفاق ..

وحدث أسلم خادم عمر ـ قال : خرجت مع عمر ليلة ، وبعدنا عن المدينة ، ونحن نتفقد اهل المنازلَ النائية ، فقال عمر : إنى أرى ها هنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد ، فانطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ... فإذا بامرأة معها صبيان يتضاغون ( أى يتصايحون ويبكون ) فسلم عمر ، ثم سأل المرأة ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ..

قال : وما بال هؤلاء الصبيان يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال وأى شىء فى هذا القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر ـ فقال : رحمك الله وما يدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ! ؟

قال أسلم فأقبل على فقال : انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا من دقيق وكبة من شحم وقال : احمله على ـ قلت : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين ! قال : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ قال فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه اليها نهرول فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول لها :ذُرى علىَّ وأنا أحرك لك .

ثم جعل ينفخ تحت القدْر ، وكانت لحيتُه عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طهى لهم .. ثم أنزلها وقال : أطعميهم وأنا أبسطه حتى يبرد ، فلم يزل يفعل ذلك حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك . وقام وقمت معه ـ فجعلت تقول : جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من عمر ـ فيقول : قولى خيراً ، اذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله .

ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض قريبا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدأوا . فقام فحمد الله ثم أقبل على فقال : يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت الا انصرف حتى أرى ما رأيت .

ويدخل أحد الولاة على عمر .. فيجده مستلقيا على ظهره وبعض الصبية يلعبون من حوله ، فينكر عليه ما رأى ، فيعزله عمر عن ولايته قائلاً له : ( اذا كنت لا ترفق بولدك .. فكيف ترفق بالمسلمين ) ؟

هذه نماذج ثلاثة .. من اهتمام الحاكم المسلم بالطفولة ، النابع من شعوره العميق وايمانه الوثيق بمسئوليته عن الاطفال كمسئوليته تماما عن الرجال : عناية بهم ، ورعايةً لهم ، وسؤالاً عن حاجاتهم ، وضمانا لها غذاء وكساءً ونماء . ولا غرابة فيما فعله عمر ، ففى الحديث : ( من كان له صبى فليتصاب له ) وفى الاثر : ( لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وآخه سبعا ) .

فأين نحن اليوم ـ حكاما وآباء وامهات ومعلمين ومعلمات من واجباتنا نحو الطفولة ؟ واين نحن من حقوق اطفالنا علينا ؟

اننا بهذه المناسبة نطالب بان يكون للعالم الإسلامى عربياً وغير عربى : مؤتمره الخاص للبحث فى شؤون أطفاله ـ لماذا ؟ لأن مشكلات الطفل العربى والمسلم غير مشكلات الطفل الأوروبى والأمريكى .. وان كانت بعض الأسر الإسلامية ـ بل ومعظمها ـ قد سرت اليها بعض العدوى من عادات الأسر فى أوروبا وأمريكا .

وتتمثل هذه العدوى ـ أو هذا الوباء المتسرب الى الأسر العربية بصفة خاصة : فى استقدام المربيات والحواضن الأجنبيات عقيدةً ولغةً .. أى أنهن غير عربيات وغير مسلمات . وبذلك ينشأ اطفالنا غرباء عن لغتهم ودينهم وهم يعيشون بين آبائهم وامهاتهم !

وتبدو هذه الصورة أكثر فظاعة وشناعةً فى الأسر العربية المسلمة التى تعيش فى بعض مدن أوروبا وامريكا ، وتترك اطفالها لرعاية هؤلاء النسوة غير العربيات وغير المسلمات .. حتى شكت احدى السيدات العربيات لإحدى المجلات من أن ابنها اعوج لسانه حتى لم يستطع أن ينطق الكلمة العربية صحيحة فصيحة !

وليس هذا البلاء هو الوحيد فى الأسر العربية المسلمة التى تعيش خارج ديارها الاسلامية ـ بل هناك اهمال العقيدة والعبادة ومعرفة سور الصلاة وتسبيحاتها وركوعها وسجودها .. لأن هذه المربية غير المسلمة التى حرفت لسان هذا الطفل العربى عن لغته ـ لا ينتظر منها ان تُعلِّمه كيف يقرأ القرآن ، وكيف يتوضأ ، وكيف يصلى ! !

ولعل القارىء قد لاحظ أنى ركزت على الأسرة العربية المسلمة والطفل العربى المسلم ، ولم أقل الطفل المسلم مطلقا والأسرة المسلمة بإطلاق ، وذلك لأن الأقليات الاسلامية من غير العرب تتجمع وتتعاون فيما بينها على اقامة مسجد خاص بها ، وانشاء مدرسة لأطفالها .. للحفاظ على دينها عقيدة وعبادة ، وعلى قوميتها التركية ـ مثلا ـ أو الهندية أو الباكستانية .

● ولا نجد مثل هذا التجمع والتعاون عند الأقليات والأسر العربية المغتربة فى أوروبا وامريكا واستراليا ـ مع الأسف الشديد ، بل نجد التنافس والتخاصم ، وتبادل التهم والأراجيف بين رؤسائها وقادتها ..

● كما نجد ضياع اطفالها وانسلاخهم من عقيدتهم الاسلامية ولغتهم العربية . وقد رأيت كل ذلك بعينى رأسى فى رحلتى الى استراليا وبريطانيا قبل نحو عام تقريبا .

ونعود الى توصيات مؤتمر ميلانو للطفولة لنرى ان بعضها فيه إسراف كبير يخالف طبيعة الطفل ، ويفوق مستوى تفكيره . ولكنهم بسبب اصرارهم على استمرار خروج الأمهات للعمل خارج البيوت بعيداً عن اطفالهن ـ أرادوا أن يمنحوا الطفل مزيداً من الحريات والحقوق التى تفوق طاقته العقلية والجسدية معا ..

من هذه التوصيات قولهم : ( يجب ان يقارن الطفل نفسه بالمواطنين الآخرين ، ويشارك بمشكلاته ، ويجب ان يكون له الحق فى الحصول على كل الوسائل والمعلومات لكى يتأكد من وضعه الحقيقى وتأثيره الايجابى فى الحياة المدنية ) .

● هذا الكلام لا يقال الا للمتماثلين عمراً وثقافةً وعملاً فهل يستوى الأطفال مع مواطنيهم الكبار ؟ حتى يقال انه يجب ان يقارنوا انفسهم بالمواطنين الآخرين ؟ وحتى يقال انه يجب ان تتوفر لهم كل الوسائل والمعلومات حتى يعرفوا وضعهم وتأثيرهم فى مجتمعهم ؟ .

ان الطفل هو الطفل ... ووضعه الحقيقى : أنه يحتاج الى رعاية وتوجيه من الكبار ـ آباء وأمهات ومعلمين ـ حتى يبلغ مبلغ الرشد ، وحتى يستطيع ان يمارس دوره العملى ، ويكون له تأثيره الإيجابى فى مجتمعه ..

وهذا لا يعنى تقييد الطفل وحرمانه من حقه فى الرأفة والرحمة بحكم سنه ، وحقه فى الحوار معه فى كل ما يعرض له من حاجات ومشكلات بحكم إنسانيته . وانما يعنى ان نُعامله فى نطاق مستواه العقلى والجسدى ، وان نُعِدَّهُ لمسئوليته فى الغد حين يصبح رجلاً .

وقد اسلفنا القول : إن منهج رعاية الاطفال الاسلامى يوصى بالقاء التحية عليهم ، ويمنع الكذب فى التعامل معهم . ونضيف هنا قوله ﷺ : فيما رواه احمد والترمذى ( ليس منا من لا يرحم صغيرنا ، ولا يُوقِّر كبيرنا ) .

فالرحمة مطلوبة فى التعامل مع الصغار لأنهم فى طور التعليم والتربية والاعداد ، والتوقير واجب للكبار لأنهم هم المعلمون والمربُّون والموجِّهون للصغار . ولا تتأتى المقارنة بينهما فى التعامل العقلى والعملى .

وتوجب توصيات مؤتمر الطفولة ايضا : ( بتشجيع اى تجمعات للأطفال فى المدينة بصرف النظر عن الطبقات المختلفة ) ! .

لا ندرى كيف يطلق هذا التشجيع لأى تجمع مع من يقوم به الأطفال مهما كان هدفه وموضوعه ونتائجه . مع ان الكبار لا يؤذن لهم فى قانون الدولة بأى تجمع مطلق من كل قيد او شرط ؟ .

ان الاطفال أحوج من الكبار الى ضبط نشاطهم وتجمعاتهم ، وتنظيمها بحيث تكون ذات فائدة تعود اليهم فى انفسهم عقولاً وأبداناً ، وبحيث لا تسبب لغيرهم تعبا ولا نصبا .

ومن التوصيات ايضا : ( ان للطفل الحق - كبقية المواطنين - فى التعامل مع كل المنشآت الاجتماعية كالمدرسة والمستشفى .. وكل المنشآت العامة ) .

وفى هذه التوصية اطلاق لا يصح .. بل لا بدَّ من قيد لحماية الطفل نفسه ، واذا كان من حقه ان يتعامل - كغيره من المواطنين الكبار - مع المدرسة والمستشفى بوصفهما منشأتين تختصان بالرعاية التربوية والصحية .. فهل تأذن له بحرية التعامل مع المصارف والمحاكم ومكاتب الشرطة وامثالها مما يترتب عليه مسؤوليات مالية وجنائية وشخصية ؟

● هنا نذكر بايجاز : حكمة النظام الاسلامى فى رعاية الطفل ، فهو يبرئه من المسئولية حتى يبلغ أشدَّه ، وأبوه هو المسئول عنه ، وان كان الأب ميْتاً فالوصُّى عليه يتولىَّ رعايته الاخلاقية ، وحفظ حقوقه المالية والشخصية حتى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، ويثبت لدى القضاء الشرعى انه فتى رشيد .

ولم ينس الاسلام الأطفال اليتامى - الذين حرموا رعاية الآباء ، واهتمامهم بتربيتهم ، وحفظ حقوقهم - فقد شدَّد القرآن الكريم على اقربائهم بضرورة العناية بهم : تربية وحفظاً لأنفسهم ، وصوناً لأموالهم حتى يكبروا ..

ففى القرآن الكريم : ( ﴿ فأما اليتيم .. فلا تقْهرْ ﴾ [1] وفيه ايضا : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا ﴾ [2] وفيه كذلك : ﴿ ويسألونك عن اليتامى ؟ قل إصلاح لهم خير ، وان تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [3] وفى الحديث النبوى : ( أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ) [4] وأشار ﷺ بالسبابة والوسطى ، وفرَّج بينهما .

---

( ١ ) الضحى / ٩ .

( ٢ ) النساء / ١٠ .

( ٣ ) البقرة / ٢٢٠ .

( ٤ ) رواه البخارى .

وبعد .. فإن القرآن الكريم يؤكد ان ( الاطفال ) ذكورا واناثا : فرحة وبهجة ومتعة لآبائهم وامهاتهم فى الحياة ، بل هم عندهم اغلى واعز من المال وكافة متاع الدنيا ـ وذلك فى قول الله عز وجل :

● ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. ﴾

● ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين .. ﴾

وعودا على بدء .. نطالب الدول العربية الاسلامية بأن تكون لها مؤتمراتها الخاصة بأطفالها وأسرها ـ فلنا ديننا واخلاقنا وعاداتنا واعرافنا ، ولأهل أوروبا وامريكا دينهم واخلاقهم وعاداتهم واعرافهم ...

وصدق الله العليم الحكيم فيما قال عنا وعنهم : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما انت بتابع قبلتهم .. ﴾ [1] .



( ١ ) سورة البقرة / ١٤٥ .

# مسؤلية الآباء والأمهات التربوية

كان لى شرف المساهمة فى ندوة ثقافية عقدتها مديرية التعليم بجـدة ، وتحدث معى خلالها ثلاثة من رجال الفكر والأدب والتربية والتعليم . [١]

وافتتح مدير التعليم [٢] الندوة بكلمة عن موضوعها ، وهو ( مسؤولية البيت والمدرسة تجاه الجيل الصاعد ) ، ورحب بالمتحدثين والمستمعين معا ، وأشار الى اهمية الموضوع الذى سوف يجرى النقاش حوله خلال هذا الاجتماع الثقافى ، ثم قسم الحديث الى جانبين ... احدهما : مسؤولية البيت نحو الشباب والطلاب ، والثانى : مسؤولية المدرسة .

● قلت : فى بداية كلامى ـ بعد أن حمدت الله ، وصليت وسلمت على نبيه محمد ﷺ أود قبل ان أخوض فى حديث مسؤولية البيت تجاه الناشئة الصاعدة ان اقدم بكلمة وجيزة عن المسلمين كأمة واحدة ، ذات منهج ممتاز عن غيرها من الأمم ، فى كل شئون الحياة : من تشريع وقضـاء ، وتـربية وتعليم ، واجتماع واقتصاد .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسـكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع الى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ [٣] .

---

( ١ ) هم الاساتذة محمد حسن كتبى ، ومحسن احمد باروم ـ وعلى حسن فدعق .

( ٢ ) هو الاستاذ عبد الله بوقس .

( ٣ ) سورة الحج / ٦٧ .

فنحن اذا أمة ممتازة ، ذات منسك فريد مجيد ، وعلينا ان نتمسك به ، ولا نعبأ بمنازعة الأمم لنا على مناسكها . وحسبنا ان الله عز وجل يؤكد لرسوله الكريم ﷺ انه فى منسكه الذى شرعه الله له لننسكه معه : على هدى مستقيم ، كما يؤكد فى آية اخرى اننا بفضل هذا المنسك ، وتحت قيادة هذا الرسول : ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ (٤) .

بعد هذه المقدمة الوجيزة ، تصديت للارتباطات والمشاعر التى تشد افراد الاسرة المسلمة بعضهم الى بعض ، وتلزم الآباء والأمهات برعاية الأبناء من ذكور واناث ، وتلوت بعض الآيات والأحاديث النبوية التى تصور هذه الروابط والعواطف اجمل تصوير ، وتوضح مدى تأثير الأبوة والأمومة فى البنوة إصلاحا أو افسادا ..

ففى القرآن الكريم ـ مثلا ـ نجد هذه اللفتات التربوية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة .. ﴾ .

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ .

ونداء نوح لابنه : ﴿ يا بنى اركب معنا . ولا تكن مع الكافرين .. ﴾ الى آخر القصة .

ووصايا لقمان لابنه : ﴿ يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .. ﴾ الى آخر وصاياه له بالتقوى ، والتواضع والصبر ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ..

وقوله عز وجل ـ على لسان الصالحين من الآباء والامهات : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين ﴾ ..

﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين ﴾ .

---

( ١ ) آل عمران / ١٠٩ .

ان فى كل آية من هذه الآيات القرآنية مبحثا تربويا لا يتسع المجال ـ هنا ـ لتفصيله فليتأمله القارىء على مكث .

اما التوجيهات التربوية فى حديث الرسول ﷺ ، فهذا قليل من كثيرها الممتع المشبع :

* كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، او يمجسانه [١]

* ما نحل والد ولده نحلة افضل من أدب حسن [٢] .

* لأن يؤدب الرجل ولده خير من ان يتصدق بصاع [٣] .

* مروا اولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع [٤] .

وان فى كل حديث من هذه التوجيهات النبوية مبحثا تربويا واسعا يضيق نطاق هذه الندوة عن تفصيله ، فليتدبره القارىء على مكث ايضا .

بعد هذه الاشارة القصيرة الى التوجيهات التربوية ، فى القرآن والسنة النبوية ، حول مسئولية الآباء والأمهات نحو اولادهم بنين وبنات ـ قلت :

ان نظريات التربية الحديثة تتفق مع منهج الحزم الذى يفرضه الاسلام فى تربية الاولاد ، بل ان عدداً من رجال التربية فى الغرب قد اصبحوا ينادون اليوم بسياسة العصا اذا لزم الأمر . كما ان دراسات وابحاثا نفسية واجتماعية قام بها العلماء والاطباء هناك .. اثبتوا بها ان الانحراف الخلقى الذى يعانى منه الاحداث فى بلادهم انما جاء ثمرة مريرة للإسراف فى منحهم الكثير من حرية التصرف والسلوك ، ولتدليل الآباء والأمهات لأولادهم من بنين وبنات .. بتلبية رغباتهم ، وارخاء العنان لهم فى كل ما يريدون وما لا يريدون .

---

( ١ ) رواه الشيخان .

( ٢ ) اخرجه الترمذى والحاكم والسيوطى .

( ٣ ) رواه الترمذى .

( ٤ ) رواه احمد .

كان ذلك مجرد حديث نظرى عن مسؤولية البيت تجاه الناشئة الصاعدة .

أما اذا تأملنا واقعنا الذى نعيشه ، ومشكلات اولادنا التى نعانيها ، فان ( اولادنا ) هؤلاء لم يعودوا ( اكبادنا ) كما قال الشاعر العربى القديم :

فانما اولادنا بيننا          أكبادنا تمشى على الارض .

فقد عنى بذلك انهم أعزاء على آبائهم ، احرياء بالرعاية والعناية البالغتين مبلغ اهمية الكبد من جسم الانسان ، وعظم الوظيفة الحيوية التى تؤديها للجسم الانسانى .. حتى لقد استعار الناس معنى ( الكبد ) للتعبير عن عمق الاحساس بالمودة ، وقوة الشعور بالألم او المسرة على سواء ، فقالوا : شفيت كبدى ، او أوجعت كبدى وامثال ذلك من تعابير .

وبالنسبة ( للأمهات ) ومسؤوليتهم التربوية ـ نرى انه مما لا جدال فيه ان الامومة بالنسبة للمرأة غايتها القصوى خلافا للرجل .. فالأبوة بالنسبة اليه ليست الا وسيلة الى غاية اخرى .. هى العمل والكدح فى سبيل حياة افضل للاسرة .. وبالتالى للجمتمع كله .

والاسلام قد سبق علم الاجتماع الحديث فيما قرره من تقسيم العمل بين الذكر والانثى .. فى نظريته المشهورة : ( الناس يتضامنون بتقسيم المسؤوليات بينهم .. على اختلاف مواهبهم الطبيعية فيقوم كل منهم بخدمة المجتمع حسب مواهبه الفطرية .. )

فقد جعل تربية الاولاد الاولية ، وهى الرضاعة والحضانة ، من اختصاص المرأة ومن حقها الذى لا تغلب عليه : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يُتِمَّ الرضاعة ﴾ .. وجاء اسلوب القرآن الكريم فى هذا التوجيه إخبارياً ، وهو فى حقيقة الأمر انشائى باعتباره حقا طبيعيا للولد على امه ، وحقا طبيعيا ايضا للأم على الزوج لئلا يحرمها اياه فى حالة الطلاق .

لقد اعطى الاسلام الأم حق حضانة اولادها رضاعا وتربية ، حتى فى حالة افتراقها عن الزوج ، الى ان يبلغوا سنا يستطيعون معها خدمة انفسهم بلا معين ، وألزم الرجل بالانفاق عليها وعليهم ، وعندما تتزوج بآخر جعل

حضانتهم لجداتهم لأم ثم لجداتهم لأب ، على ترتيب مفصل فى كتب الفقه الاسلامى ، وقد راعى التشريع الاسلامى ـ هنا ـ وجوب تنشئة الطفل فى اطواره الاولى فى احضان نسائية عاطفة راحمة قريبة منه ، لا غريبة عنه .. تغذيه وترضيه منه لشعور الأمومة عند المرأة من جهة ، ومن جهة اخرى تربية وتنمية لقصور الطفولة وعجزها فى محضنها الطبيعى ! .

ولا حاجة بنا هنا الى بسط القول عن الخطأ الذى تجترحه الأسر غير الاسلامية ، وسرت عداوة الى الأسر الاسلامية .. وهو انصراف الامهات طوعا الى ارضاع اولادهن صناعيا بغير البانهن الطبيعية ، او تسليمهم الى المحاضن العامة والمربيات الاجنبيات مما أوهن علائق الأسر واضعف ارتباط الابناء بآبائهم وامهاتهم ، كما اعترف بذلك علماء التربية والباحثون فى شئون النساء والاطفال .

على ان التشريع الاسلامى الذى اختص المرأة بتربية الأولاد الأولية ـ لحكمة بالغة ـ اختص الآباء بتنشئتهم بعد بلوغهم سن التمييز ، لحكمة بالغة ايضا .. فهم كرجال أقدر على الحزم فى رعايتهم والعناية بمستقبلهم ، وفتح عيونهم على مطالب الحياة من علم وعمل واكتساب .

ومن اجل ادامة المودة بين الأبوين المتفارقين ، اوصى الاسلام كلاً من الأب والأم بألا يضارَّ احدهما الآخر بسبب الولد ، فعلى الوالد إسداء المعروف من كسوة ونفقة ، والا ينتزع منها ولدها بغير سبب شرعى .. وعلى الأم قبول هذا المعروف فى نطاق ما يجب لها وما يقدر الأب عليه ـ يقول الله عز وجل : ﴿ اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ـ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ .

ولو قدر ان افتقد الوليد أباه ، فجاء الى الدنيا يتيماً فوارثه ملزم بنفقات الحضانة والرضاع .

ومما يلحق بتربية الاولاد ، فى التشريع الاسلامى : الولاية والوصاية ، وهما يعنيان ان يقوم اقرب الناس الى الصغير أو السفيه أو المجنون أو المعتوه بتدبير

شئونه ، ورعاية حقوقه الى حين الكبر والرشد او الشفاء .. وقد رتب الاسلام لهما قواعد ومنازل لا يتسع المجال لتفصيلها ، ولكنا نستطيع ان نقول ان الاسلام بما رسم للوصاية والولاية من قوانين انما يريد ان يظل الأقرباء ـ اى الأسرة الواحدة ـ فى تعاون وترابط مستمرين .. الكبير يرحم الصغير ، والعاقل ينوب عن المجنون فى أخذ واعطاء لمصلحته المشروعة ، والرشيد يحمى السفيه من تصرفات لا تجديه .

اذن ( فالامهات ) عليهن مسؤولية تربوية . ربما كانت اعظم من مسؤولية الآباء ، لأنهن أكثر عشرة ، وأطول صحبة للأطفال من آبائهم المشغولين عادة بهموم العمل والكسب .

وقد اتفقت نظريات التربية القديمة والحديثة على ان ( الأم ) تقوم بدور اساسى ورئاسى فى تربية الاطفال وتنشئتهم ، واعدادهم لأطوار المراهقة فالشبيبة فالرجولة اخيرا . واصبح قول حافظ ابراهيم الشاعر المصرى ـ من قصيدته المشهورة عن دور المرأة التربوى والاجتماعى :

( الأم مدرسة اذا اعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق )

أصبح هذا القول مثلا سائرا يتردد على الأفواه كلما تحدث المتحدثون وكلما كتب الكاتبون عن الأم واهمية دورها التربوى ، وجلال واجبها فى سياسة الأسرة وادارة البيت ، وتربية الأطفال واثر ذلك كله فى المجتمع كافة .

ولكن قبل حافظ ابراهيم جاءت المبادىء التربوية الاسلامية تؤكد عظم رسالة الأمومة ،وثقل واجباتها ، وفداحة متاعبها .. ممثلا كل ذلك فى التوجيهات القرآنية والنبوية المكررة الى بر الأمهات من قبل الأولاد اكثر من برهم بالآباء ، فى القرآن ـ مثلا نجد :

﴿ ووصينا الانسان بوالديه .. حملته أمه وهنا على وهن .. ﴾

﴿ ووصينا الانسان بوالديه احسانا .. حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ .

﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ .

وفى السنة مثلا نقرأ :

( الجنة تحت اقدام الأمهات ) .

ولمن سأل عن أحق الناس بحسن صحبته قال عليه الصلاة والسلام : أمك ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك .. ) .

ولمن استأذن فى الجهاد قال ﷺ أحية امك ؟ قال : نعم ، قال : فالزم رجلها ) ..

وقد يظن القارىء السطحى انها مجرد وصايا ببر الآباء والأمهات ، وان الأمهات اكثر حظا من البر الواجب ، واللطف المطلوب . وفاته ان الجزاء دائما من جنس العمل ، كما يقال فى الامثال ، بل كما هو مقرر فى التشريع السماوى والبشرى ﴿ هل جزاء الاحسان الا الاحسان ﴾ [1] .

اذن فواجب الام عظيم تجاه أولادها ، لأن طبيعة وظيفتها ـ وهى ـ الأمومة ـ تفرض عليها هذا الواجب الثقيل ، وهذه المهمة الجليلة .. مهمة الرعاية والتربية لمن يلازمها ـ وهو طفلها ـ حملا ورضاعا وحضانة ، ثم عشرة طويلة فى الأسرة الجامعة .

ونعرض هنا ـ خلال هذا الحديث التربوى العابر نموذجا تربوياً إسلامياً يجب أن تقتدى به الأمهات العزيزات ، فمما يروى عنه ﷺ : انه كان ذات يوم فى زيارة لإحدى الامهات ، ورأى طفلها يسرح ويمرح بين يديها غاديا ورائحا هنا وهناك . وسمع الأم تقول لولدها : ( تعال اعطك تمرة ) على غرار ما تفعله الأمهات ، كل الأمهات فى كل زمان ومكان قديما وحديثا ،إغراء للاطفال بإطاعة أمرهن ، وتلبية إشارتهن ..

وحتى نحن الرجال نفعل ذلك مع الأطفال احيانا ، من أجل ترغيبهم فى الذهاب الى المدرسة ـ مثلا ـ او لإسكاتهم من صخب او بكاء .

وهى ـ على أية حال ـ تجربة صادقة من تجارب التربية القديمة صدقتها وأيدتها نظريات التربية الحديثة .. بما أطلقوا عليه اسم ( نظرية الثواب )

---

( ١ ) سورة الرحمن / ٦٠ .

للمحسنين فى مقابل ( نظرية العقاب ) للأطفال المسيئين .

ولكنها ـ اى نظرية الثواب والمكافأة ـ يجب ألاّ تطلق هكذا اسرافا بدون قيد ولا شرط بل لا بد فى استخدامها من الاعتدال ، الى جانب الصدق والوفاء .

وهذا ما دعا اليه نبى الاسلام ﷺ ـ منذ اربعة عشر قرنا ـ والزم به المسؤولين عن تربية الاطفال ، وخاصة الامهات والمربيات والمدرسات .. لأنهن اكثر اتصالا ، وادوم ارتباطا بالاطفال ـ من الرجال . فقد قال ﷺ لتلك الأم ، عندما قالت لولدها ( تعال .. لاعطك تمرة ) .. قال لها : ( إما انك لو لم تُعْطِهِ لكتبت عليك كذبة ) .

أرأيتم بل ارأيتن أيتها الامهات .. كيف ينبه الرسول ﷺ الى خطورة القدوة ، سيئة كانت ام حسنة ، فى تربية الاطفال . ذلك ان الطفل الذى ينشأ على يد أم كاذبة سيصبح كذابا ، والكذب ـ كما نعلم جميعا ـ يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى النار . كما جاء ذلك فى حديث نبوى صحيح .

والى جانب هذه اللفتة التربوية العظيمة عن أهمية القدوة فى تنشئة الأطفال ـ نلاحظ فى التنبيه النبوى اشارة بينة الى ان الكذب على الاطفال كالكذب على الرجال ، لأن العادة جرت بين الناس ان يستهينوا بالكذب على الصغار ، يظنون انهم غير مؤاخذين به جزاء وفاقا ، فجاء الحديث النبوى ليقرر : ان الكذب واحد بالنسبة للصغير والكبير ، وهو مكتوب ومحسوب .

ونضرب مثلا عصريا لأهمية دور الأم فى تربية أولادها وخطورة مسؤوليتها عن استقامة سلوكهم او انحرافه ـ من كتاب ( لنتحدث عن الشباب ) الذى ألفه الطبيب الانجليزى ( تشارلز دفى ) هذا المثل ، او هذه الحادثة : هى ان اما لفتاة فى نحو الثالثة عشرة من عمرها ـ جاءته تشكو اليه انحراف ابنتها ، وزلتها التى لا تغتفر لأى فتاة مثلها تقع فيها ..

قالت الأم ما معناه موجزا : طلبت ابنتى منى يوما ان أشترى لها ( سوتيان ) ففعلت ، وأتتنى مرة اخرى تطلب شراء حذاء بكعب عال ، فأجبتها

الى رغبتها . ثم طالبتنى بأن أعطيها نقودا لتشاهد مثل زملائها وزميلاتها بعض الأفلام السينمائية ، فلم إتردد فى تلبية رجائها . واخيرا طلبت زيادة المصروف اليومى حتى تتيسر لها مشاهدة الأفلام السينمائية كل يوم ، وبدون تمييز بين الجيد والردىء ، وما يصلح لمثل سنها وما لا يصلح ، فوافقت ..

ومضت الأيام سراعا .. حتى فوجئت الأم بابنتها وهى تشكو من بطنها ، وتبدو مضطربة النفس ، غير راغبة فى الطعام ، وعندما همت الأم بأخذ ابنتها الى الطبيب لمعالجتها من سوء الهضم ، كما ظنت انها مصابة به ـ صاحت الابنة ( كونى فطنة يا أمى انه اقرب الى الحمل منه الى عسر الهضم .

وأصاب الأم ما أصابها من دهشة واضطراب وارتعاش ، نتيجة لهول المفاجأة التى كانت لا تتوقعها بحال من الأحوال .

ولكن ذكاء الابنة وجرأتها بددا ذهول الأم ، وواجهتها بالحقيقة المريرة .. فقد التفتت الفتاة الى أمها وهى ثائرة وصاحت فى وجهها : ( ماذا كنت تتوقعين ؟ ان البيت يظل خاليا حتى الساعة السادسة مساء كل يوم .. لقد اعتدت بعد ان حصلت على الدراجة ان اذهب فى جولة مع بعض الرفاق من صفى ، ثم تطور الأمر فأصبحت الجولة قاصرة على أنا وهو .. انه زميل فى الرابعة عشرة .. وكان مثلى ليس فى بيتهم هو الآخر سواه ، ولهذا بدأت أدعوه الى بيتنا ليساعدنى فى أداء واجبى المنزلى ـ ثم قالت الفتاة ـ فى نهاية حديثها لأمها : ( صدقينى لو انك موجودة فى البيت عند عودتى من المدرسة كل يوم لما كنت خالطت هؤلاء الفتيان .. ولا فعلت هذا الذى فعلت ) ..

ويأتى اعتراف الأم بخطئها رائعا كاعتراف البنت ـ لقد قالت للدكتور ( تشارلز دفى ) : كان من سوء تصرفى ان اذهب بها الى الحلاق ليرتب لها شعرها ويسرحه تسريحة غير عادية ، وان اوافقها على ان ترتدى ثيابا غير مناسبة ، وان اهبها مصروفا اكثر مما تحتاج .

ثم استقالت الأم من وظيفتها للاستقرار فى منزلها ، ورعاية شؤون اولادها . وما أروعها قصة ، وانفعها عبرة للذين ينادون بالاختلاط فى تعليم الجنسين

وبتشغيل المرأة وتوظيفها . على ان فى كتاب ( لنتحدث الى الشباب ) قصصا واحداثا مماثلة واحصاءات واستفتاءات اجراها الدكتور تشارلز نفسه ، وقام ببعضها زملاؤه من المهتمين مثله بهذه الأمور التربوية الاجتماعية ، بحثا عن اسباب التمزق العائلى ، والفساد الخلقى ، ومحاولة لاكتشاف اسبابه واصلاح خرابه .

وحسبنا هنا قول الرسول ﷺ : ( إلزموا أولادكم .. وأحسنوا أدبهم )[1] .



( ١ ) رواه ابن ماجة .

# مِن وسائل الآباء في تربية أبنائهم

لا حاجة بى ـ ولا بقراء هذا البحث ـ الى الحديث عن وسائل التربية والتعليم المختلفة قديما وحديثا .. من حلقات الدرس فى المساجد ـ أو فى البيوت على أيدى المشايخ ـ أو الرحلات فى طلب العلم الى بلاد قصيّة ـ أو المدارس والجامعات الحديثة ـ أو عن طريق الاذاعة والتلفاز والصحافة الخ[1]

انما اردت ان اقصر الحديث على وسيلة تربوية مهمة أهْمَلهـاَ الآبـاءُ فى عصرنا الحديث ، وقد كانت متبعة فيما خلا من عصور ـ وهى ( الرسائل ) التى كان الآباء يكتبونها الى ابنائهم ويحملونها خلاصة معارفهم وتجاربهم ووصاياهم ، ويدعون أبناءهم فيها الى الخير والحق والجمال .. اعتقادا ومقالا وسلوكا ..

وهناك لون من هذه الرسائل .. وجهت من الآباء الى الأبناء مباشرة ، وحفظها التاريخ وتناقلتها الأجيال فكانت فى معنى الرسائل المكتوبة لأنها تحمل نفس موضوعاتها ومقاصدها .

وقد قص القرآن الكريم ، فيما قص من أحاديث الغابرين : نصيحة لقمان عليه السلام لابنه ببعض الأمور المهمة التى جاء فى مقدمتها :

( يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ) ثم تتابعت بعـد ذلك نصائح لقمان لابنه : باقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهـى عن المنـكر ، والصبر على المصائب ، والتواضع للناس بعدم تصعير الخدّ ، والتخلى عن المشى مَرحَاً فى الأرض ، وغض الصوت .

وهناك نصائح الملوك التى كتبوها لأولياء عهدهم ـ من أبنائهم ـ يعظونهم فيها بالسلوك الحسن ، والخلق الحميد ، وبالجد والاجتهـاد فى طلـب العلـم ،

---

(١) مثل ما يطلق عليه ( جامعات فى الهواء ) او ( تعليم الانجليزية او الفرنسية بالراديـو ) وامثاله من مختلف العلوم والفنون .

والتحلى بالحلم ، وسياسة الرعية بالعدل والرحمة والسماح .

ان رسائل الآباء الى أبنائهم ، تحسب أسلوبا من أساليب التربية والتعليم ، وتدخل فى عداد مناهجها . وهى ذات أثر فعال فى التنبيه والتوجيه .. ولا تعتبر خاصة بالأبناء الذين كتبت بأسمائهم أو وجهت اليهم ، فان ما تحمله من نصائح وتجارب الآباء ينتفع به كافة قراء هذه الرسائل من الشباب والطلاب ، على مر الاجيال المتعاقبة : عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل .

قلت : فى كتابى ( دين ودولة ) وهو الجزء الرابع من سلسلة ( على مائدة القرآن )[٢] تحت عنوان : « الأبوة اللاهفة » :

فى القرآن الكريم : صور حية مشرقة مبثوثة فى عديد من سوره ، عن لهفة الأبوة على البنوة .. حبا لنيلها ، وحرصا على خيرها ، واهتماما بصلاح أمرها ، ورجاء لأن تسعد وتفوز ..

« وهى عاطفة فطرية طبيعية لا غرابة فيها ولا معابة . فأولادنا ـ كما يقول الشاعر القديم ـ ( أكبادنا تمشى على الارض ) وهم كذلك امتداد لأعمارنا ـ القصيرة ، وتجديد لوجودنا الفانى ، وخلف لسلف راحل .. يذكّر به ، ويحفظ عنه ، ويدعو له ..

( والأولاد أطفالا : فرحة للآباء ، وزينة للعيش ، وبهجة للبيوت . وهم فتيانا : معقد الآمال ، ومحط الرجيات ، حتى اذا أصبحوا رجالا كانوا لآبائهم مناط تفاخر وتكاثر ، وموئل عون لهم على شيخوخة ، ضعيفة وحياة عسراء ) .

وقد فصلت القول عما فى القرآن من صور لهفة الآباء على الأبناء فى قصص زكريا ـ وابراهيم ـ ونوح ويعقوب عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام .

وفى هذا الصدد يقول الدكتور مصطفى جواد ـ فى مقدمة كتاب ( من رسائل الآباء الى الاولاد ) لايفان جونس : ( ان الاولاد هم أعز الموجودات على

---

(١) ص / ٩٥ الطبعة / ٣

آبائهم .. لذلك يكتبون اليهم بأعز ما يجول فى خواطرهم ، ويتردد فى أذهانهم من مخزون الحكم ، ومحصول التجارب ، وعزيز الآداب ، وجميل الارشادات .. من اجل تسليكهم سبل الرشاد والسداد ) .

ومن الكتب التى وضعت خاصة فى هذا الاسلوب التربوى : كتاب الاستاذ أحمد أمين رحمه الله ـ بعنوان ( الى ولدى ) وهو مجموعة رسائل كتبها الى ولده الذى كان يدرس فى انجلترا .

ومثله كتاب ( دعوة الى الاسلام ) للدكتور محمد فاضل الجمالى وهو مجموعة رسائل كتبها الى ولده الذى كان يدرس فى لبنان ، عندما كان الوالد سجينا فى بغداد خلال عام ١٩٦١ بعد الانقلاب العسكرى عام ١٩٥٨م .

والفرق بين الكتابين : أن رسائل الأستاذ أحمد أمين ، خليط من توجيهات فى الدين والدنيا والسياسة والاجتماع ، وتجارب الماضى وتطورات الحاضر .. أما رسائل الدكتور الجمالى فهى نصائح دينية خالصة ، ولذلك سمى الكتاب الذى ضمها « دعوة الى الاسلام » .

ومما جاء فى احدى رسائل الاستاذ أحمد أمين لولده قوله :

( دلتنى التجارب على أن عنصر الدين فى الحياة من أهم أسباب السعادة والحياة السعيدة كما دلتنى التجربة على أن السعادة لا تتحقق الا فى حياة ترتكز على الاعتقاد بالله ، يركن اليه ، ويعتمد عليه ، ويستمد منه المعونة ، ويطلب منه التوفيق فى الحياة )

وبعد أن يذكر الاستاذ أحمد أمين تزمت المتدينين فى زمانه ، وتشددَهم الى جانب تضاؤل الدين فى زمان ولده ، ونسيان أمره وأهمال شأنه ـ يقول : « ان الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح ، ولابد منهما جميعا للانسانية ، فالعلم لحياة العقل ، الدين ولحياة الفؤاد . »

ويضيف فى رسالة اخرى : ( يا بنى ان الايمان بالله يملأ فراغ النفس ، ويوحى بالطمأنينة ، ويوثق الصلة بين الفرد وأهله ووطنه .. كما يوثق الصلة بينهم جميعا وبين الله ) .

ويسجل الاستاذ أحمد أمين على ولده واترابه من الشباب : أن الحيرة والقلق والاضطراب فى حياة جيلهم .. انما نشأت عن افتقادهم للدين ، واهتمامهم بالدنيا وحدها ، دون نظر الى ثواب ولا عقاب ، مما زادَ فى حيرتهم وقلقهم ، وأورثهم أنانية مفرطة وأثرة جامحة ..

أما رسائل الاستاذ الجمالى الى ولده فكلها توجيهات دينية ، وتوضيحات عن أهميَّة الدين للفرد وللمجتمع وللحياة كلها ، وعن موقف الدين من العلم وما يتوهمه البعض من تضارب بينهما ـ يقول الدكتور الجمالى فى احدى رسائله الى ولده :

( ان النظم الاجتماعية التى لا تعتمد على الدين ، تكثر من رجال الامن والمباحث ، وتعتمد على التربية العلمانية . ولكن هذا لا يكفى لحماية الانسان من الشر ، فلا الشرطى ولا المعلم يرافقان الفرد فى السر والعلن .. انما الذى يرافقه ويسيطر على نفسه ظاهرها وباطنها : هو الايمان بالله ـ فالانسان المتدين هو شرطى نفسه ، ومعلم نفسه ) .

وفى حديثه عن حاجة الانسان المتحضر الى الدين يقول فى هذه الرسالة :

( على الرغم من تقدم العلوم المادية والمخترعات ، واختراق الفضاء ، فان الانسان فى قلق روحى واجتماعى قد يؤدى الى الانتحار الجماعى .. ما لم يتزود بالايمان ، وما يرافقه من حب الخير والحق والحرية . ولذلك أخذ بعض كبار العلماء والفلاسفة من أمثال المؤرخ الانجليزى ارنولد توينبى والفيلسوف الامريكى ارنست هوكتك يؤكدان حاجة الانسان الى الدين ) .

قلت : وفى فصل ( قلق المجتمعات التى لا تدين بدين ) من محاضرة « الدين : فطرة وميثاق » من كتابى ( محاضرات فى الثقافة الاسلامية )[1] مزيدا من اعترافات المفكرين الغربيين بانهيار حضارتهم وتعاسة حياتهم نتيجة لاهتمامها ( بالمادة ) وحدها وقيامها على مبدأ أنتاج اكثر بتكاليف أقل وعدم اهتمامها بالانسان عقلا وروحا ، وعجزها عن التمييز بين المشروع والممنوع ـ

---

(١) ص / ٢٩ الطبعة /٤

أمثال اليكس كارل صاحب كتاب ( الانسان ذلك المجهول ) وفوستر دالاس صاحب كتاب « حرب أم سلام » ولويس ماسينيون مؤلف كتاب « المعجزة العربية » وغيرهم .

وفى رسالة اخرى يتحدث الدكتور الجمالى - الى ولده عن التضارب المزعوم بين الدين والعلم ، ويرجع بولده وبالقارىء بضعة قرون عندما كان رجال الدين - فى أوروبا يقاومون الافكار العلمية الحديثة فأخذ الصراع بينهم وبين رجال العلم يتسع ويقوى .. ولكن هذا الصراع هو فى حقيقته .. بين رجال العلم وليس بين العلم والدين من حيث هما علم ودين : ( فالعلم يعالج أمورا محدودة قابلة للقياس ، والدين يعالج أمورا هى وراء الطبيعة الظاهرة وترتبط بغير المحدود . العلم يستخدم المقاييس والمشاهدة والتجربة . والديس يستخدم التأمل والإلهام ) .

ويزيد الاستاذ الجمالى الأمر توضيحا فيقول : إن العلم يبحث عن السفينة وتركيبها ، والدين يبحث عن خالق السفينة وعن الربان الاعظم . اذن فالدين والعلم يكمل أحدهما الآخر ، ولا يتضاربان فى الحقيقة ) .

قلت : بل لابد ( للدين ) من علم ليكون التدين على بصيرة ، لأن الجهل قد يخرج الرجل عن دينه ، او يفسده - على الاقل - ولذلك حث الاسلام - فى قرآنه وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم على ( العلم ) طلبا وبذلا ، أى اشاعة ونشرا فى المجتمع الانسانى .

ولابد ( للعلم ) من دين يمنع بأخلاقه من احتيالات العلم وانحرافاته وخدعه وبدعه ، ولذلك أوصى الاسلام فى حديث رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل المسلم ربه : ( علما نافعا ) لأن من العلم ما يضر ، بل ما يقتل ، ويسوق الأمم والدول الى الهلاك والدمار .

ويقول الدكتور الجمالى - فى رسالة اخرى لولده - ( بعد ان اقتنعت بعدم كفاية العقل وحده ، وعدم كفاية العلم وحده .. اهتديت الى الايمان . وأداة الايمان ليست العقل وحده ، فهناك حقائق كونية لا يستطيع العقل ان يدرك

كنهها مع ادراكه وجودها .. وهنا يأتى موضوع الالهام والوحى ، فهى مصادر لادراك الحقائق الكونية التى هى فوق العقل أو وراءه )

قلت : ان فى كتاب ( العلوم الطبيعية ) للاستاذ يوسف مروة ـ اعترافات صريحة لكثير من علماء الطبيعة والفلك الغربيين بعجزهم عن ادارك كثير من الحقائق الكونية ، وأن تأملهم فيها يحملهم على التسليم بوجود ( قوة كبرى ) أو ( ارادة عليا ) تُدبِّر هذا الكون وتُديره .

وفى الرسائل الأخرى تحدث الدكتور الجمالى الى ولده بكلمات رائعة ، نافعة لأمثاله من الشباب والطلاب ـ عن الاختلاف بين تعاليم الاسلام وواقع المسلمين ، وتعدد المذاهب الاسلامية ، وامتياز الاسلام على جميع الاديان والمذاهب الاخرى بأنه : ( دين كلى حر ، محرر .. لاشتماله على معتقد وعبادة ، ونظام اجتماعى ، واخلاق ) فهو يختلف عن الاديان التى تعنى بالناحية الروحية للانسان فقط ، والمذاهب التى تستبد بالفرد وتخضعه للزعيم او الحزب كالفاشية والنازية والشيوعية .

وعن المذاهب الفلسفية ، يقول الدكتور الجمالى : ( انها على اختلافها : غير مطمئنة للنفس ، فكل منها يحوى وجهة نظر صحيحة ، ولكن ليس فيها مذهب يشمل الحقيقة كلها ) .

ان رسائل الدكتور الجمالى الى ولده نموذج رائع لأداء الآباء واجبهم التربوى نحو أبنائهم .. وللتاريخ وحده ـ أثبت هنا ان الدكتور الجمالى الذى كان ألمع رجال الحكم والسياسة فى العراق .. لم يكن معروفا عنه هذا الاتجاه الدينى ، الذى كان من بركات سجنه حيث اتيحت له الفرصة الذهبية للتأمل فى الاسلام ، ودراسة القرآن .. وكان من ثمرات ذلك كتابه : الفلسفة التربوية فى القرآن ) ، ومحاضرات اخرى اسلامية الفكرة والموضوع والاتجاه .

والاستاذ الجمالى ـ كما عرفته فى الندوة العالمية للاسلاميات التى دَعَتْ اليها جامعة البنجاب فى باكستان عام **١٣٧٧هـ** رجل لامع الاسم ، واسع الثقافة ، بارع الحديث .. فهو اذن مغنمٌ للدعوة كبير . »

# نماذج من رجال التربية والتعليم القدامى ..

ومع ما أسلفنا من اهتمام الاسلام قرآنا وسنة بإعداد الاطفال تربية وتعليما ـ نقرأ في كتاب ( مذهب الاسلام ) الذى كتبه المستشرق الفرنسى ( كارادى فو ) عام ١٩٠٩ م ـ اتهاما لا برهان عليه بأن الاسلام لم يهتم بأمر الطفل . وانه لا يوجد فى الشرق ذلك الذوق الفطرى للتعليم ولا الميل للبحث عن المناهج العقلية ، ولا الرغبة فى التقدم فى المسائل التربوية . ولا يوجد فى القرآن الكريم الا بعض الآيات الخاصة برعاية الايتام وحمايتهم .. وان السير التاريخية فى موضوع الطفولة نادرة فى الادب الاسلامى [١] .

وأشنع من هذا الاتهام : افتراء ( كارادى فو ) بأن الرسائل التى وضعت فى التربية باللغة العربية خلال القرون الوسطى كان مؤلفوها من المسيحيين العرب ـ وان المفكرين المسلمين أهملوا هذا الموضوع ، وأثر الابتكار فيما أضافوه ضئيل !!

وقبل الرد على هذه الفرية المكشوفة المكذوبة نورد كلمتين إحداهما للشيخ مصطفى عبد الرازق من شيوخ الازهر السابقين رحمه الله ، والثانية للدكتور احمد فؤاد الاهوانى

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : ( ان المسلمين لم يتخلفوا عن غيرهم فى ميدان التربية والتعليم ، فقد كتب ائمتهم ومفكروهم فى موضوع التعليم ومناهجه منذ القرون الاولى ، وكانت لهم انظار طريفة لم يخلق تطاول الزمن من جدتها ) .

---

( ١ ) لدينا دراسة مطولة عن حقوق الطفولة فى الاسلام .. لا يتسع المجال هنا لضمه الى هذا البحث عن التربية الاسلامية .

ويقول الدكتور الاهوانى : ( لا نزاع فى ان العرب قد بلغوا فى القرون الاولى الاسلامية درجة عظيمة من الحضارة انتشرت من أقصى الشرق الى اقصى الغرب ، ولا حضارة بغير علم . ولا علم بغير تعليم ، ولا تعليم بغير نظام معين يرتب الصلة بين المعلمين والتلاميذ ، ويفصل المناهج او طرق التربية وسائر ما يتصل بالتعليم من ادوات ) .

وحق ما يقوله الشيخ عبد الرازق والدكتور الاهوانى : من ان حضارة المسلمين قديمة ، منذ القرون الاسلامية الاولى . ولا حضارة بدون علم ، ولا علم بدون تعليم ، ولا تعليم بلا مناهج وطرق وعلاقات بين المعلمين والتلاميذ .

اذن فهناك تربية اسلامية ، وهناك تعليم اسلامى منذ اكثر من عشرة قرون على الاقل - اى قبل ان يضع ( كارادى فو ) كتابه فى عام ١٩٠٩ م بتلك القرون العشرة المتطاولة .. وهكذا يأتى حُكْمُه على التربية الاسلامية باطلا لا يستند على دليل ، الا الدليل الذى ينم عن جهله بالمؤلفات الاسلامية التى وضعت خاصة بالتربية ، او التى تخللتها موضوعات تربوية وتعليمية ، ولم يضعها مؤلفون مسيحيون كما زعم .

وانما كان مؤلفوها من مشاهير المفكرين والعلماء المسلمين : كابن سحنون - والقابسى - والغزالى - وابن خلدون . وغيرهم ..

ان « كارادى فو » لا عذر له فى هذا الجهل المطبق بمؤلفات المفكرين الاسلاميين فى موضوع التربية والتعليم ، منذ عشرة قرون .

فقد كان عليه ، وهو يتصدى لهذا البحث ، ويضع كتابا باسم ( مذهب الاسلام ) ويتهجم على الاسلام والمسلمين بانهم لم يعنوا بتربية الطفل ، ثم يفترى بان الرسائل المؤلفة فى التعليم الاسلامى ، انما وضعها مؤلفون من المسيحيين العرب - كان عليه ، وهو يقوم هذا المقام الخطير ، ان يستعد له بالبحث الجاد ، والدراسة الأمينة ، والحكم العادل ، والا فهو يعرض نفسه وكتابه للاستهزاء والتجهيل .

يقول الدكتور الأهوانى : « ان المسلمين ألفوا فى التربية كتبا مستقلة منها كتاب ابن سحنون الذى يرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجرى ، ومنها كتب متأخرة عن هذا التاريخ بعضها مطبوع ، وبعضها لا يزال مخطوطا . والى جانب ذلك نجد فصولا كثيرة متناثرة خلال مؤلفات الفقه ، وكتب الفلسفة ، وموسوعات الأدب .. تتحدث عن تعليم الصبيان ، وتصف احوالهم وتبين أحكام التعليم » .

ويتحدث الدكتور الاهوانى : عن رسالة ( القابسى ) فى تعليم الاطفال فيؤكد انها من الحجج التى تزيل الوهم الذى علق بالاذهان من ان المسلمين لم يهتموا بتعليم الاطفال ، وتثبت ان المسلمين ابتكروا فى التربية آراء" جديدة لم يصطنعوها عن العرب المسيحيين أو ينقلوها عن التراجم اليونانية واللاتينية التى نقلها المترجمون الى العالم العربى .

والقابسى ـ هذا الذى يتحدث عنه الدكتور الاهوانى هو من رجال القرن الرابع الهجرى ، اى فى صميم القرون الوسطى التى يعدها المؤرخون من عصور الظلام والتخلف فى حياة الاوروبيين .

ولذلك يعد الدكتور الاهوانى ( القابسى ) صاحب رسالة ترفع اسمه الى قائمة قادة التربية ، وتضعه فى سجل المبرزين .. فقد نادى القابسى ( بالتعليم الالزامى ) وهو دليل على تقدم الفكر الاسلامى التربوى .. وعلى سبقه للحضارة الحديثة التى نادت بالتعليم الالزامى فى عصور متأخرة !

وحسبنا ان نشير ـ بايجاز ـ الى ان رسالة القابسى الموضوعة قبل عشرة قرون من كتاب ( كارادى فو ) ترسم منهجا تربويا رائعا يشمل واجب الآباء نحو ابنائهم ـ ومؤهلات المعلمين ومسؤولياتهم ـ وطرائق تعليم الاطفال ـ ومراقبة سلوكهم ـ وتحديد العقوبات التى ينبغى إنزالها بالمخالفين منهم ، مع النهى عن عقوبة الانتقام ، وتعويد الاطفال على الاستقلال الشخصى ـ والرفق فى معاملتهم .

كما ان الرسالة تشير الى ضرورة تعليم البنات فى حدود معينة تليق بطبيعتهن ووظيفتهن . ورسالة القابسى هذه عن تعليم الاطفال كانت موضع

دراسة الباحثين ، وتعليق المشتغلين بشئون التربية عند المسلمين .. شأنها شأن رسالة ابن سحنون ، ورسائل اخوان الصفا ، وآراء ابن خلدون ، وابن سيناء ، وابن مسكويه ، والامام الغزالى وامثالهم [1]

ولا نكتفى برسالة القابسى . بل نضيف أمثلة وأدلة اخـرى .. من اهتمام الفكر الاسلامى بالتعليم ومناهجه ، والتربية واصولها وطرائقها . فإخوان الصفا ـ مثلا ـ وضعوا رسائلهم الفلسفية والسياسية المعروفة ، وضمنوها آراءهم فى التربية والتعليم . ومن نظرياتهم التربوية :

( ان النفوس قبل التعليم كمثل ورق أبيض لم يكتب فيه شيء فاذا كتب فيه شيء حقا كان ام باطلا فقد شغل المكان ومنع ان يكتب فيه شيء آخر ، ويصعب حكه او محوه ) .

وهو شبيه بالقول المأثور : ( التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ) كناية عن دوامه وثباته ـ وقالوا عن العلم : ( انه صورة المعلـوم فى نفس العالـم ) وعندهم : ان طرق اكتساب المعلومات ثلاث : الاول الحواس الخمس التى تدرك الامور الحاضرة فى الزمان والمكان ـ الثانى استماع الاخبار التى ينفرد بها الانسان دون سائر الحيوان ، ويفهم بها الامور الغائبة عنه بالزمان والمكان ـ الثالث : طريق الكتابة والقراءة ويفهم بها الانسان معانى الكلمات واللغات والاقاويل بالنظر فيها .

والمعرفة ـ عندهم ـ كلها مكتسبة وليست فطرية ، ودليلهم على ذلك الآية القرآنية : ﴿ والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ .

ولهم آراء قيمة : فى تقوية الحذق بالعلوم والرسوخ فيها عن طريق مداومة النظر ، وتكرار البحث والمذاكرة ـ وفى تربية الاطفال وتعويدهم نوعا من المهارات والآداب والفنون ، عن طريق المحاكاة والاختلاط بمن يتقـن أو يحسـن هذه المعلومات .

---

( ١ ) عن كتاب التربية فى الاسلام للدكتور احمد فؤاد الاهوانى ..

وهناك احمد بن مسكويه ، صاحب كتاب ( تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق ) فهو من المهتمين بشئون التربية والتعليم ، وله نظريات فى هذا المجال منها : ان المعلومات بعضها مكتسب وبعضها فطرى . لأن النفس - عنده - وان كانت تأخذ كثيرا من مبادىء العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مبادىء اخرى وافعال لا تؤخذ عن الحواس البتة ، وهى المبادىء الشريفة العالية التى تبنى عليها القياسات الصحيحة .

وهو بذلك يخالف نظرية اخوان الصفا - فى ان المعلومات كلها مكتسبة وليست فطرية ، وكذلك رأيه فى الاحوال الاخلاقية .. فبعضها فطرى وبعضها مكتسب .. الاول من اصل المزاج ، والثانى مستفاد بالتدريب والعادة ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه حتى يصير ملكة واختيارا .

ويخلص ابن مسكويه من ذلك الى ان الطفل قابل للتعليم والتأديب .. ثم يتحدث عن الفضائل والآداب التى يأخذ الناس بها انفسهم منذ الصبا . وفى هذا المنهج يمزج ابن مسكويه بين الدين والفضيلة والعلم ، ويذكر فصلا عن تأديب الاحداث وينصح بتعويدهم على الخشونة والصلابة ، وتَجْنِيبهم الملابس الملونة والمنقوشة ، لأنها من خصائص النساء . ومع ذلك يأذن لهم باللعب الجميل : فى بعض الاوقات ليستريحوا من تعب الأدب .

ثم ناتى الى ابن سينا - فهو أيضا صاحب نظريات تعليمية وتربوية تدل على فكر حر ، منها ان يبدأ الآباء بعد فطام اولادهم بتأديبهم ورياضة اخلاقهم ، قبل ان تهجم عليهم الاخلاق اللئيمة فتتمكن منهم ، فيصعب افتلاعها من نفوسهم .

ومنها : ان التعليم يجب ان يكون جماعيا فى المكتب او المدرسة لا فرديا على مؤدب خاص . لان انفراد الصبى الواحد بالمؤدب اجلب لضجرها - ولان الصبى عن الصبى ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس . واجتماع الصبيان ادعى الى التعليم والتنافس والتفوق ، ثم انهم يترافقون ويتكارمون ويتعاونون - وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم . وتحريك هِمَمِهِم ، وتمرين لعاداتهم .

ولابن سينا رأى تربوى سبق به علماء التربية وعلم النفس المحدثين ، وهو مسايرة ميول الطفل ، ثم توجيهه الى الصناعة او المهنة التى تتفق مع ميوله ، فقد ألزم معلم الطفل ان يسبر فريحته ، ويزن طبعه ، ويختبر ذكاءه ، ثم يختار له الصناعة التى تتفق مع استعداده .

وقد وضع ابن سيناء للمعلم شروطا واوصافا يجب ان تتحقق فيه ليكون حاذقا فى تعليمه ، ومحترماً من تلامذته .

وللامام الغزالى ـ حجة الاسلام ـ آراء تربوية وتعليمية شارك بها فى بناء الثقافة الاسلامية الشامخ . ومن نظرياته فى هذا المجال : أن العلوم مركوزة فى اصل النفوس بالقوة كالبذور فى الارض ، والتعلم هو إخراجها من القوة إلى الفعْل ، وهو بهذا الرأى يخالف إخوان الصفا ، ويتفق بعض الشىء مع ابن مسكويهْ .

ويقسم الغزالى العلوم الى فرض عين وفرض كفاية ـ فالعلوم الدينية فروض عين ، وفرض الكفاية هو ما لا يستغنى عنه فى قوام امور الدنيا كالطب اذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الابدان ـ والحساب كذلك ضرورى للمعاملات وقسمة الوصايات والمواريث .

وله منهج خاص يفصل فيه واجبات المعلم ـ ان يراعى قدرة المتعلم العقلية ، فلا يرهقه بما لا يستطيع فهمه ، وان يتدرج بالطفل القاصر ، ولا يشوش عليه قلبه .

وقد سبق الغزالى التربية الحديثة ونظرياتها الى القول بأنه : ينبغى ان يؤذن للصبى بعد الانصراف من المكتب ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه ، بحيث لا يتعب منه . فان منع الصبى من اللعب ، وارهاقه فى التعلم دائما يميت قلبه ، ويبطىء ذكاءه ، وينغص عليه العيش .

وهناك من مفكرى المسلمين ( الزرنوجى ) المتوفى سنة ٥٩١ هـ صاحب كتاب ( تعليم المتعلم عن طريق التعلم ) ومن آرائه التعليمية الا يشتغل المتعلم

بفن قبل ان يتقن الاول ، وأن يبدأ بما هو أقرب الى فهمه ، ولا يحفظ الا بعد الفهم ، وقد سبق الزرنوجى علماء التربية الحديثة الى طريقة التكرار الموزع على عدة أيام ، لضبط المعلومات وتذكرها .

ونختم الحديث بابن خلدون ـ المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، مؤسس علم الاجتماع ، والسابق بنظرياته التاريخية والاجتماعية.والتربوية كثيرا من العلماء الغربيين العصريين .

ومن آرائه التعليمية ـ ان التفاوت بين الناس ناشىء عن حصول الملكات بواسطة التعليم على عكس ما يظنه بعض الناس انه راجع الى اختلاف فى حقيقة ( الانسانية ) وان التعليم فى الصغر أشد رسوخا ، وهو اصل لما بعده ـ وأن على المعلم فى متعلمه والوالد فى ولده الا يستبدوا فى التأديب . لأن من كان مرباه بالعسف والقهر ضاقت نفسه ، وذهب نشاطه ، وتظاهر بما ليس فى ضميره خوفا من الأذى )[1] .

هذا قليل من كثير ...من اهتمامات المسلمين بشئون التربية والتعليم . وقد أوجزنا ايجازاً شديداً الاقتباسَ من آرائهم ونظرياتهم ـ بضرب المثل ، وتقديم البرهان فحسب ـ ردا على مزاعم كارادى فو وفضحا لجهله بتاريخ الفكر الاسلامى وسوابقه الرائعات فى مجال التربية والتعليم ..

---

( ١ ) عن ( مقدمة ابن خلدون ) دراسة لساطح الحصرى ..

# الفصل الثاني

- أثر العقيدة في نجاح التربية ..
- التربية والتعليم في المنهج القرآني ..
- التربية الذاتية تعني الاهتمام بالغير ..
- نحو علم نفس إسلامي ..



# أثر العقيدة في نجاح التربية

مما يلاحظه المشتغلون بدراسة أحوال المجتمعات الانسانية ، المتأملون لتطوراتها ومناهج سلوكها : ان الطرائق الحديثة فى التربية الفردية ، والتوجيه الجماعى . . لاتملك لنفسها التأثير اللازم ، والاقناع الحاسم بحيث تنتصر على عرامة الشهوات الانسانية ، وطغيان الانانية والذاتية التى تؤثر مصلحتها وحدها على مصالح الآخرين .

فهى : ـ أى الطرائق التربوية العصرية ـ لذلك قليلة النجاح بل عديمته ، ونادرة العلاج بل فاقدة له . فكم قرأنا ، وكم سمعنا عن مضار « التدخين » الصحية التى اثبتتها تقارير الجمعيات الطبية فى كل من بريطانيا وأمريكا ، وهى ذات اختصاص علمى ، وصاحبة خبرة تجريبية . ولكنا لم نجد أى أثر للاستماع إليها والاقتناع بها ، ومايزال الناس يدخنون ، ويسرفون فى التدخين ، وفى طليعتهم الأطباء والمثقفون !

بل أعجب من ذلك وأغرب : أن يتبجح اصحاب المصانع التى تنتج السجائر بأن انتاجهم قد تضاعف ، والأرباح قد تزايدت ـ بعد حملات الأطباء الشديدة على التدخين ، وبعد امتناع الاذاعة والتلفزيون عن الدعايات الاعلانية التجارية المتمدحة بلذائذ التدخين .

وقد سبق لأمريكا نفسها أن أعلنت تحريم الخمر ، وأصدرت بهذا التحريم قانونا . ولكن الناس لم يسمعوا ـ لهذا القانون ولم يطيعوه ، بل ازداد شرها فى شرب الخمر ، يكرعون من كؤوسها فى نهم لايفقه مضره على الصحة ، وظمأ

لايعقل خطراً على الاخلاق ، فاضطرت حكومتهم إلى الغاء القانون ، وإعلان الاباحة . . مرةً أخرى .

وكذلك الحال بالنسبة لعقوبة الإعدام قصاصاً ، كم نسمع أن بعض دول أوروبا وأمريكا ـ أقرَّتها نظراً لتزايد حوادث الاعتداء على الأرواح ، ثم عدلت عنها .

وهنا ـ وبالتأمل والمقارنة بين طرائق التربية والتوجيه الحديثة وبين مناهج الاسلام التربوية ـ يبدو أثر العقيدة قويا فيما يشرعه من أخلاق وآداب ، وفيما يمنع ويبيح .

ذلك ان الانسان بطبيعته البشرية . . يكره التقييد والتكليف ، ويحب الانطلاق والانفلات من كل القيود والتكاليف ، وهو يتساءل فى قرارة نفسه : لماذا أخضع لهذا القيد أولذلك التكليف ؟ ومن هو الذى يكلفنى أويقيدنى ؟ وهل هو عادل . . يريد بى الخير أم هو يظلمنى بما يفرض على من فرائض ؟ والمسلم وحده هو الذى يجد الأجوبة الشافية على هذه التساؤلات . . . فالله وحده هو الذى شرع له هذا الدين القيم ، وبين له الحلال والحرام ، وعلل له التحليل والتحريم بما يرتاح له وجدانه ، ولايرفضه عقله ، كما ميز له سبحانه وتعالى الخبيث من الطيب ، وحذره من أن ينخدع بكثرة الخبيث ، ولذة المعصية ، فكلتاهما ـ اللذة والكثرة ـ إذا كانتا فى حرام فهما هباء وغثاء وعناء .

ومن ثم تنشأ العقيدة فى قلب المسلم ، فيؤمن بالله خالقا ورازقا ، آمرا وناهيا بحكمة وعدالة :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾[1]

﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾[2]

﴿ يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾[3]

---

( ١ ) سورة البقرة / ١٨٥ .

( ٢ ) النساء / ١٤٧ .

( ٣ ) النساء / ٢٦

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ (١)

﴿ وماجعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ (٢)

﴿ وما ربك بظلاّم للعبيد ﴾ (٣)

﴿ هو الذى يصلىّ عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ (٤)

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى هذا المعنى كثيرة لانحصيها عدداً فى هذا الفصل ـ وهى تؤكد أن الاسلام . . يسعى فى تربية الفرد والجماعة ، عن طريق إصلاح ( العقيدة ) أولا وهو بذلك يحمل معه ضمانات تطبيقيه وتحقيقيه ، بعد أن تتأصل العقيدة المؤمنة الصالحة فى نفوس معتنقيه . ولذلك قال الرسول ﷺ لمن سأله عن طريق النجاة ، أوحقيقة الدين : « قل آمنت بالله ثم استقم » أى العقيدة أولا ثم السلوك ثانيا .

لقد كان المسلمون الأوائل بما غرس الاسلام فى قلوبهم من عقيدة إذا أنزل عليهم من وحى الله أوسنة رسوله أمر أونهى كانوا يَسمعَونَ ويطيعون . . كما حدث ذلك عند تحريم الخمر ـ مثلا ـ فقد قالوا عند ذلك : انتهينا يارب . وقد رفض الرجل الذى كان يتختم بخاتم ذهبى وانتزعه الرسول ﷺ من أصبعه ، وقذف به على الأرض قائلا : « يعمد أحدكم إلى قطعة من النار فيضعها فى أصبعه » رفض هذا الرجل المؤمن أن يلتقط هذا الخاتم الذهبى من الأرض لينتفع به فى شأنٍ آخر غير التختم الحرام ، على الرغم من تنبيه بعض الصحابة له إلى ذلك ، وقال : ماكنت لأخذه ، وقد نزعه رسول الله منى !

---

( ١ ) البقرة / ٢٦٨ .

( ٢ ) الحج / ٧٨

( ٣ ) الأحزاب / ٤٣

( ٤ ) فصلت / ٤٦

كذلك كان سلطان العقيدة قويا بارزا . . حتى فى تربية النساء وغرس روح التضحية والفداء فى نفوسهن فقد كانت الخنساء ـ فى جاهليتها ـ بالغة الجزع على أخيها ( صخر ) بعد موته ، وقد قالت فيه شعراً كثيراً ـ هذه الخنساء الجازعة الهالعة حولها الاسلام بعد مااعتنقته إلى امرأة عجيبة تدفع بأبنائها الأربعة إلى معركة القادسية دفعاً ، وتحضهم على القتال فى سبيل الله حضاً ، وعندما بلغها نبأ استشهادهم لم تكتم فرحتها ، وقالت فى سرورٍ ظاهر : ( الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ) .

ذلك هو أثر « العقيدة » فى نجاح تربية الفرد ، وإصلاح الجماعة . وبدون عقيدة لاينفع علم ، ولاتشفع تربية ، ولايردع قانون .

والدكتور محمد فاضل الجمالى يجعل الإيمان ـ أى العقيدة ـ أول محتويات التربية الاسلامية . . ويرتِّب هذه المحتويات ، ويبينً أثر كل منها على النحو التالى :

الإيمان : هو الينبوع الذى نستقى منه الأخلاق الفاضلة . .

والاخلاق : تقود الانسان إلى معرفة الحق والحقيقة ، وهذا هو العلم بعينه . .

والعلم : يقود الانسان إلى العمل الصالح . .

فالايمان هو أساس الاخلاق الفاضلة . . والأخلاق الفاضلة هى أساس العلم الصحيح . والعلم الصحيح هو أساس العمل الصالح . . هذا هو البناء التربوى القرآنى الرفيع المنيع .

ويتساءل الدكتور الجمالى : كيف يستطيع المعلم تكوين ناشئة مؤمنة ؟ ثم يجيب : ان التحفيظ اللفظى لايكفى فى التربية الدينية ، فالمهم هو التصديق ، والتصديق قناعة فكرية وعاطفية معاً ، وهو يتطلب إتصالاً روحياً بين المعلم وطلابه .

ولما كان فاقد الشيء لايعطيه . . فلابد أن يكون المعلم مؤمناً صالحا حتى يستطيع أن يوحى الايمان إلى نفوس الطلاب !

والايمان ـ كما يتحدث عنه فى صفحة أخرى ـ يحل النظام محل الفوضى ، والوحدة بدلا من الفرقة ، والأمل مكان اليأس.، وهذه هى العناصر الأساسية فى ضمان سعادة الانسان وطمأنينته . ومن هنا كانت مناهج التربية والتعليم مسؤولة عن توفير هذه العناصر عن طريق توفير منبعها الأصيل ، الذى هو الإيمان .[1]



---

( ١ ) عن كتاب ( الفلسفة التربوية فى القرآن ) للدكتور فاضل الجمالى . .

# التربية والتعليم في المنهج القرآني

يمتاز الاسلام على ماسبقه من أديان إلهية ، وما لحقه من معتقدات ومذاهب بشرية ـ بأنه دينُ تكوينٍ فردى ، ودينُ سياسةٍ جماعية معاً ، فهو قبل أن يخطو فى سياسة الأمة خطواته القوية النيرّة يمنح الفردُ فرصاً واسعة ، ودروساً ماتعة لتربية نفسه على أطايب الخلق ، وتزكية روحه ، وتنقية مشاعره وتصفية خواطره من وسوسة الشيطانِ بعصيانٍ أوكُفران .

والقرآن الكريم فى دعوته إلى ( التعليم والتربية ) يقرنهما فى آياته الخاصة بهما قرآنا منطوقاً أحياناً ، ومفهوماً أحيانا أخرى . . فهو يقول فى قسم المنطوق :

﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ﴾ .

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ، ويزكِّيكم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمة ، ويعلِّمكم مالمْ تكونوا تعلمون ـ فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولاتكفرون ﴾ .

﴿ رَّبنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم ﴾ .

ويقول فى قسم المفهوم :

﴿ مثل الذين حمُلِّوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ .

﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق ، وأنتم تعلمون ﴾[1]

فى الآيات الأولى من قسم المنطوق يمنُّ الله عز وجل على المسلمين : بأنه إنما بعث محمداً ﷺ معلماً ومربياً لهم ، فالتربية والتعليم هى مهمته الأولى والكبرى . وهى مهمة الرسل جميعا .

وفى الآيات الأخيرة من قسم المفهوم يعظ القرآن متَّبعِيه أبلغ موعظة . . بما يعرض لهم من صور شائهةٍ للعلم النظرى البحت الذى لاينفع حامله . . فهو يعرف الحق ويكتمه ، ويعلم الكذب ويقوله ، ويجد نعمة الله بين يديه ثم ينكرها ، وينصف بنى قومه ويحيف على غيرهم ، إنه إذن كالحمار يحمل أسفاراً ، دون أن ينتفع بما فيها من علمٍ وبيان وهُدىً .

وهل يقبل عاقل أن يكون هذا مثله ؟ إذن فما جدوى عقله ؟ أم هل يقبل مسلم أن يكون هذا مثله وإذن فما فضل انتسابه إلى أمة القرآن ، وهو لايتصف بوصفها . . ووصفها العلم والخُلُق معاً ، ولاينفع العلم بلاخلق ، وقد ينفع خُلُق بلاعلم . .

إن القرآن ينكر هذا العلم النظرى البحت . . العلم الجاف الفارغ من عواطف الروح والوجدان . . عواطفها الخيرة البرَّة الرشيدة . هذا العلم الذى يتعلّمه كثير من علماء اليوم ، ويتثقّف به عديد من حملة الشهادات الجامعية الكبرى ، فى مختلف أقطار العالم الحديث .

إنما العلم القرآنى هو العلم العملى . العلم بالحق والخير والقوة ، ومعرفة متاعبها وتضحياتها بين السفهاء من الناس ، مع السعى إليها وطلبها لنفسك ولغيرك ـ والعلم بالباطل والشر والاثم ، ومقتها بعقلك ، وبغضها بوجدانك ، والدعاية ضدها بلسانك وعملك .

---

( ١ ) هذا الفصل مقتبس من كتاب ( دين ودولة ) للمؤلف .

ويبدأ منهاج التعليم فى القرآن :

أولا : يذكر أن العلم نعمة يمنُّ الله بها على عباده ، فقد منَّ الله سبحانه أولاً على أبى البشر آدم عليه السلام بنعمة العلم الذى ميزّه به على الملائكة ، وأظهر به رفيع مقامه بينهم : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ﴾ ثم منَّ الله على نبيه عيسى عليه السلام بنعمة العلم ﴿ وإذ علمتكُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ ومَنَّ الله على نبينا محمد ﷺ بنعمة العلم أيضا : ﴿ وَعلّمَكَ مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظياً ﴾ وأخيراً منَّ الله على المؤمنين بالنعمة نفسها : ﴿ إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾ .

ثانيا : يمضى منهاج القرآن ، فينص بعد ذلك على فضل العلماء : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر ألو الألباب ـ وتلك الأمثال نضربها للناس ، ومايعقلها إلا العالمون ﴾ . .

ثالثا : ويوضح القرآن ، بعد أن قدَّم بمقدمةٍ عن نعمة العلم ورفعة العلماء ، آثار العلم الصحيح وثماره : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وخشية الله فى المتعلم هى أن يعمل بما علم ، وإذا عمل كل فرد فى المجتمع الإسلامى بما علم ، فقد وقى نفسه وأمته من أخطائه وزلاته . . وفى ذلك السلام الذى ينشده الإسلام . .

ومن آثار العلم الصحيح وثماره : معرفة النجاح الحق فى الدنيا ـ فهاهم أولاء العلماء الصلحاء من قوم قارون يعلِّمون المخدوعين المغرورين حقيقةَ جاه قارون وماله وعقباهما : ﴿ قال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ .

رابعا : ينص القرآن فى منهاجه التعليمى على وجوب التيقن والتثبت مما يتعلمه المرء المسلم ، ويضرب مثلاً للمعرفة الكاملة الصادقة بأنها كمعرفة الرجل لابنه ، ويحذِّر من الظن والحدس ، كما يحذر من الامتراء والمحاجة واتباع الأهواء

عند بيان الحق الصراح ، وعند عدم العلم بالحقيقة ـ فيقول فى ذلك كله :

﴿ ولاتقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

﴿ وما لهم به من علم ، ان يتبعون إلاالظن . . وان الظن لايغنى من الحق شيئاً ﴾ .

﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين ﴾ .

خامسا : يرشد القرآن فى منهاجه التعليمى إلى آداب رائعة ، ليتأدبَ بها طلاب العلم ، فينالوا من طِلابهِم علماً ومن عَملَهِم خيرا ، ويفتح الله عليهم فتوح المعرفة الكاملة ، والعقل الثابت ، فهو فى هذا الجزء من منهاجه يرشدهم الى التوجه اليه ـ تبارك وتعالى ـ بالدعاء والرجاء أن يزيدهم علماً . . وان نسوا شيئاً من علمهم أن يُلْهمهم ذِكْراً . . ويؤكد لهم أن هناك مفتاحين لمغاليق العلم : هما الإيمان والتقوى . كما يلفت عقولهم إلى وجوب التواضع الدائم عندما ينالون نَيْلاً من العلم لأنه هو سبحانه المتفضل عليهم به ، ولأن الحظ العلمى الذى أدركوه مهما بلغ ارتفاعاً وعمقاً وعَدَداً ؛ فهو بالنسبة لما لديه سبحانه قليل وضئيل ـ انه يقول فى ذلك كله :

﴿ وقل رب زدنى علماً ﴾

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا ﴾ .

﴿ ومن يؤمنْ بالله يَهْدِ قلبه ﴾ .

﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ .

﴿ علَّم الانسان مالم يعلم ﴾ .

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ .

ذلك منهاج التعليم فى القرآن ، منهاجاً لاسابق له ولا لاحق به ، فريداً مجيداً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ، يعلمون ظاهراً خداعا من مناهج التعليم عند الغربيين ، وهم عن حقائق فراغها من زواجر الضمير ، وعواطف الروح البرَّة ـ هم غافلون . .

* * *

والآن الى منهاج القرآن فى التربية :

يطالب القرآن اتباعه أولاً بتربية أنفسهم على القوة . . ومعنى ذلك أن ( قوة النفس ) هى المصدر الأول لمنهاج التربية فى الاسلام ، فى حين أن فلاسفة الغربيين يدعون إلى ( قوة الجسد ) فى منهجهم التربوى ـ فالإسلام يطالب أتباعه أن يخالق كل فرد منهم أخاه وغير أخيه من الجماعات الأخرى بما يَجْمُلُ أن تنضح به النفس السمْحة الصبور ، لا بما تُمليه عليه القوة الحيوانية الغاشمة ، كما يفعل الغربيون ـ يقول القرآن عن هذا الاتجاه التربوى الكريم الحكيم :

﴿ وإذا ماغضبوا هم يغفرون ﴾ .

﴿ واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ﴾ .

﴿ ان الـذين اتقـوا إذا مسَّهـم طائفٌ من الشيطـان تذكَّروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

● ويأتى بعد ذلك المصدر الثانى من مصادر التربية الاسلامية ، وهو الشعور بالمسؤولية التى يقررها القرآن ويكرِّرها فى أكثر من آيةٍ فيقول :

﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾

﴿ وكل صغيرٍ وكبيرٍ مستطر ﴾ .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

ذلك أنه إذا شعر الفرد المسلم بانه مسؤول عما يفعل ، ومؤاخذ به ظهرت له معالم عمله وخواتمه ، قبل أن يبدأ السير فى طريقه ـ ومن هنا يتبين كيف ومتى وأين يغضب أويحلم ، ويسخو أويضن ، ويُقدم أو يحُجم ؟ .

● أما المصدر الثالث فهو الشعور بالأخوة والولاية ، هذا الشعور الذى يدرك الفرد المسلم به أنه مسؤول إذا كان قوياً عن نصرة الضعيف ، وإذا كان غنياً فمسؤول عن غوث المحروم ، وإذا كان عالماً فمسؤول عن تبصير الجاهل وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ﴾

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

﴿ والذين معه أشدَّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾

﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ .

ولما كان هذا الشعور الأخوى ، معَرّضاً لمؤثِّرات بشرية وشيطانية تُضْعِفه أو تُميته . . لفت القرآن أنظار المسلمين وأفكارهم ، إلى سبيل حمايته وصيانته من هذه المؤثرات الضارة ، فنهى فى آيات كثيرة منه : عن إساءة الظن ، والتجسس ، والاغتياب ، وسخرية الرجال والنساء بعضهم من بعض ، وعن الغمز واللمز بالألقاب الكريهه ، وعن قذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، وعن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، وعن تصديق الوشاة ورواة الأنباء ، إلا بعد التبينُ والتثبّتُ حتى لايصاب مظلوم بجهالة . . وأمر ـ فى هذا الباب ـ أن يتواضع الكبراء ، ويمشوا على الأرض هوْناً ، ويصفحوا عن لغو الجاهلين ، ليكون فى ذلك تعليمٌ للجاهل لتنديه على ماجهل وسفه ، وتطييب لخواطر الضعفاء والبؤساء[١]

وهناك ألوان أخرى من « قوة النفس » التى يبنى القرآن على أساسها منهاجه التربوى ـ فالقرآن يوصى بالصبر على المكاره ومحن الحياة ، وفتن الجهاد فى سبيل الحق والخير ، وقد جاء فى ذلك بأسلوب بليغٍ يعين على تحقيق هذه ( القوة ) وتمكينها فى النفس البشرية الهالعة الجازعة . . هذا الأسلوب هو تقرير حقيقة الفوز للصابرين الناجحين وليس أوجب لصبر الانسان وأدعى لطمأنينته

( ١ ) الآيات فى هذه الموضوعات كثيرة . . فاكتفينا بالاشارة الى مقاصدها الأخلاقية .

إلى العاقبة الحسنى من تقرير هاتين الحقيقتين : الابتلاء ابتداءً ، ثم الانتصار أخيراً وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ لتبلوُنَّ فىَ أموالكم وأنفسكم ﴾ .

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنةً ﴾ .

﴿ وإن تصبروا وتتقوا ، فان ذلك من عزم الأمور ﴾ .

﴿ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون ﴾ .

أما اللون الآخر من « قوة النفس » التى يريدها القرآن فى الأنفس المسلمة ، فهى الجرأة فى مواجهة حقائق الحياة ، وتجاربها ، وامتحاناتها ، بحيث لايحسب الانسان للرزق والعمر حساباً إلا عند الله وحده :

﴿ وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مُؤجَّلا ﴾ .

﴿ لانسألك رزقاً . . نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى ﴾ .

﴿ وكأيِّن من دابةٍ لاتحمل رزقها . . الله يرزقها وإياكم ﴾ .

وفى منهاج التربية القرآنى ضوابط محكمة لزجر المرء المسلم عن خطيئتىْ الإفراط والتفريط ، ليستقيم على الطريقة الفضلى ، وليعين باستقامته على تكوين مجتمعٍ يضمه وإخوانه بجناحينْ من المؤازرة والتحابّ . وهذه بعض آياته البينات عن هذه الضوابط التربوية :

﴿ ولاتجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ، ولاتبسطْها كلَّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولمَ يقْتروا ، وكان بين ذلك قَوَامَاً ﴾ .

﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلُوا واشربوا ولاتسرفوا ﴾ .

بقى أن نلفت الأنظار والأفكار معاً إلى « القدوة » كعاملٍ أساسِى لأنجاح التربية القرآنية ، ولإيتائِها ثمراتِها اليانعات . إذ لاخير فى علمٍ بلاعمل ، ولااستجابة لداع إلى الخير ، وهو مقيم على غيره ، والقرآن والحديث النبوى وسيرةُ رجال الاسلام الأُولَ : صريحة كلُها فى إيجاب « القدوة » الحسنة لتحقيق الإصلاح التربوى ـ يقول القرآن :

﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسط ، شهداءَ لله ولو على أنفسِكم أو الوالدين والأقربين » .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله : أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ .

﴿ أتأمرون الناس بالبر ، وتنسوْن أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

ولما كان الرسول ﷺ القائد الرائد الذى لم يكذب قومه ، وكان يبدأ بنفسه وأهله فى تطبيقه ما ينزل اليه من تشريعٍ بالأمر والزجر - وجّه القرآن أنظار المسلمين وأفكارهم إلى الاقتداء به فى قوله عز وجل :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

هذا مختصر . . عن الأسس التعليمية التربوية فى القرآن الكريم ولكن لابدَّ - فى الختام - من التركيز على أهمِّ مبدأ قرآنى تربوى بعد مبدأ ( القدوة ) ذلك هو مبدأ « التربية قبل التعليم » ، وحسبنا ما أشرنا إليه آنفا من وصف القرآن الكريم للذين يقولون مالايفعلون ، ويعملون عكس ما يعلمون بأنهم كمثل « الحمار يحمل أسفاراً » .

وإذا كان ( الجهل ) عيْباً وضَرراً فى الانسان الجاهل ، فالعلم مهما ارتفع واتّسع دون تربية ودون سلوك صالح أعيبُ وأضرُّ بصاحبه وبمجتمعه ، ذلك أن الجاهل يقترف جهالاته وهو سليم النية ، مقبول العذر ، سريع الانفضاح ، ولكن العالم الذى يفتقد الخلق الكريم والسلوك الفاضل يحتال لاجتراح السيئات وارتكاب الجهالات ليجعلها فى ثوب حسنات ، ويصطنع لها المحللات والمبرِّرات بما يُؤَوِّل من الدِين ، ويحرِّفه عن موضعه .

وويل للمجتمعات الإنسانية من ( علمائها المنافقين ) وصدق الرسول الرؤوف الرحيم ﷺ فيما قال : ( إنما أخشى على أمتى كلَّ منافقٍ عليم اللسان ) .

# التربية الذاتية تعني الاهتمام بالغير

هناك توجيهات قرآنية ونبوية فى مجال التربية الذاتيَّة والغيريَّة تلفت أنظار المسلمين وأفكارهم وقلوبهم إلى أن الاهتمام بالذات يعنى الاهتمام بالغير أيضاً ، وأن الفرد الصالح لايسعد بحياته فى مجتمع فاسد :

كقوله عز وجل : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ واتقوا فتنةً لا تُصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً .. ﴾ .

وكقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يؤمن أحدُكم حتى يحب لأخيه مايحبُّ لنفسه ﴾ .

و ﴿ كلّكُم راع .. وكلكم مسؤولٌ عن رعيته ﴾ .

وعلة العلل فى المجتمعات التى يردد أهلها الآهات والأنّات تألّماً من أوضاعها وأوجاعها : هى عدم الشعور بالمسؤولية تجاه الفرد نفسه وتجاه بيته وأولاده وتجاه عمله أو وظيفته ، وتجاه حكومته ووطنه وأمته أيضا .

وقد يستغرب البعض قولى : إنه ينقصنا الشعور بالمسئولية تجاه أنفسنا . لأنه أى القارىء يرى أن كل واحد منا مشغولٌ بنفسه مهمومٌ بجمْع مايسعدها من مالٍ ومتاعٍ بطريق الوظيفة أو التجارة أو المهنة ، ولكن الشعور بالمسئولية تجاه النفس كما أعنيه أبعدُ من هذا وأعمق بكثير ممايتصورَّه القارىء .

فالذى يهتمُّ بنفسه وبيته وأولاده فى حدود توفير المأكل والملبس والمشرب والمركب والمسكن ، ولايعبأ بالناس من حوله يأكلون ويلبسون ويسكنْون ويركبون ، أم تقوم العوائق والفوارق بينهم وبين أن يسعدوا مثله بما سعد به ـ هذا الفرد ينقصه الشعور بالمسئولية تجاه نفسه .. فنفسُه ليست منفصلةً عن إخوته

وجيرته ومواطِنيه ، وما حظى به اليوم دونهم سيفقده غداً دونهم بغير شك ، لأن الوضع العام ليس مستقياً فى مجتمعه من جميع أطرافه أو معظمها على الأقل .

ومن أجل أن يستقيم هذا الوضع العام يجب أن يكون اهتمام الفرد بنفسه وشعوره بالمسئولية نحوها غير محدودين بنطاقه الخاص ، والا فسيأتى الدور عليه يوماً كما أتى على غيره حين انصرف عنهم ، وأغفل أمرهم ، وأهمل مصلحتهم ، وسيجدهم مثل ما وجدوه بالأمس .. منصرفين عنه ، مهملين لشأنه ، غير مهتمِّين ببؤسه .

فالاهتمام بالغير إذن فى هذه الصورة العميقة البعيدة هو اهتمامٌ بالنفس ، لأنه يعنى الشمولَ والدوامَ للوضع العام فى المجتمع الكبير ..

وهذه صورة أخرى : إن اهتمام الفرد بولده أو بيته فى المدرسة يجب أن يكون اهتماماً بالوضع العام فيها .. لأنه من المستحيل أن يجد ابنه أو ابنته العناية والرعاية المطلوبتين لاتمام تربيتهما وتعليمهما إذا لم يكن الوضع العام فى المدرسة يسمح بذلك ، والا كانت عنايته ورعايته خاطفتينْ بين حين وحين ، لادوامَ لهما ولا نظام .

وهذه صورة ثانية عن البيت : إذا أحبَّ الأب أن يكون أهله وأولاده مؤدبين معه داخل البيت فيجب عليه أن يعوِّدَهم الأدبَ وحسنَ الخلق مع الآخرين خارج البيت .. والا فقد اهتم براحته وهدوئه دون راحة المجتمع وهدوئه ، وهو وضع ينقصه الشمول والدوام وهما ضمينا الثبات والاستقرار ، فقد يأتى يوم يتغلب فيه ضجيج المجتمع وعجيجه على راحة هذا الأب وهدوء بيته ، فيكون شعوره عندئذٍ قاصراً وقصيراً .. لأنه لم يمتدَّ به أبعد من أنفه ..

وصورة ثالثة عن الشارع : إن الحال فى الشارع كالحال فى المدرسة وفى البيت ـ يجب أن يكون شعور الفرد بالمسئولية نحوه لا من أجله حين يمشى أو يركب أو يقف أو يقضى أى وطر من أوطار معيشته .. ولكن من أجل غيره أيضاً ـ من أجل أن يكون الشارع نظيفاً هادئاً ، فسيحاً مريحاً لكل المواطنين .. وبعبارة أخرى ليكون صلاح الوضع العام فى الشارع شاملاً دائماً .

والا فسيرتاح هذا الفرد الأنانيُ يوماً ويشقى أياماً لأنــه لم يشرك فى الاهتمام بمصلحته مصالح الآخرين .

وصورة رابعة : كثيراً مايردد البعض بعد زيارةٍ لبلد آخر ، ذى مجتمع متحضر ومتقدمٍ صناعياً أو ثقافياً ـ قوله فى تعجيبٍ وتطريبٍ : ( إنه بلد الرجولة ) أو إنه ( بلد البطولة ) أو إنه المُجْتمع الذى يستحق أن يعاش فيه .. وما شابه هذه التعابير أو الترانيم التى تنطلق من أفواه الأغرار والمغفلّين ، والكْسالى الذين يكتفون بالنظر الى المجتمعات المتطورة المتقدمة ، وبِإرسال المدائح اعجاباً بها وطَرباً لأهلها دون أن ينفعلوا بمشاعر الاقتداء الصالح الحكيم ..

وليس من بأسٍ فى أن يعجب أحد بحضارة مجتمعٍ آخر ، غير مجتمعه ، فالمرء ـ عادةً ـ مأخوذ بما يفتقده فى نفسه أو أهله أو بلده أو مواطنيه ، وهو دائماً راغب فى المزيد من الخير والقوة والجمال ـ لاضير فى ذلك ولابأس به . فالانسان مفطور على حب الخير من صحةٍ وجمالٍ ومالٍ وسمعةٍ ورفعــةٍ ، ولا لوم عليـه ولانكير .. إنما اللوم والنكير والتثريب والمؤاخذة على القائل ( هذا .. بلد الجمال أو هذا بلد الرجولة أو هذا مجتمع الأبطال ) وهو يظن أو يعتقد أن البلاد نفسها أو المجتمعات ذاتها هى صاحبة الفضل فيما ظهر من جمالٍ وما نبت على أرضها أو نشأ من رجال وأبطال .

ذلك أن صانع البطولة أو الرجولة أو الجمال .. فى هذا البلـد أو ذاك هو الانسان ، وبتوفيق الله وتسخيره ، وتفكيرِ الانسان واجتهادِه ، وباخلاصه فى العمل وحرصه على النجاح .

إن الزمان والمكان ـ ظرف ـ مجرد ظرف ، والانسان هو الـذى يمـلأ هذا الظرف بالخير أو بالشر ، وبالجمال أو القبح ، وبالنظام أو الفوضى ، وبالتقدم أو التخلف ، وبالبطولة والرجولة أو الجبن والكسل . ولقد عرف هذا المعنى التربوى المجتمعى شاعرنا العربى القديم الذى يقول :

يلومننــى أن بعت بالـرخص منزلى ولــم يعلمــوا جاراً هنـــاك يُنَغِّصُ
فقلــت لهــم : كفّــوا الملامَ ، فانما بجيرانهـــا تَغْلُـو الدِيـــارُ وتَرْخُصُ

ولئن كان شعر الشاعر عن جيران بيته أو عن مجتمع حيه الصغير ، فإن حكمه منسحب على المجتمع الكبير لأن كل بيتٍ هو جزء من الحى ، وكل حى جزءٌ من المجتمع ، وكما يغلو الحىُ الصغير بجيرانه الأخيار أو يرخص بالأشرار .. فكذلك المجتمع الكبير يَعْلُو بأفرادهِ الأبطال أو ينخفض بالأراذل الكُسالى .

وعلى الذين يعجبون ببلدٍ متسدّم أو مجتمعٍ متحضرٍ فيه الجمال والرجولة والبطولة : أن يكونوا أبطالاً ورجالاً ، وأن يعملوا مخلصين على تجميل بلدهم وتكميله فالانسان ـ لا المَكَان ولا الزَمَان ـ هو المسئول وهو صانع البطولة والمجد ، ورافع رأس وطنه أو واضعه ، ومعز أمته أو مُذها ..

أما الترنم بأمجاد الآخرين ، والتغنىً ببطولات الغير ورجولاتهم .. دون الاقتداء بهم ، فذلك بضاعة الكَسْلىَ ، وزاد الضعاف العِجاف ..

* * *

وفى المقابل يجب أيضاً أن لانقذف « بالمسئولية » التربوية والاجتماعية إذا عجزت عن الاصلاح ـ على الزمان أو المكان .. وحسبنا هنا أن نذكر قول الشاعر القديم الحكيم :

نَعيبُ زماننا والعيبُ فينا     وما لزماننا عَيْبٌ سِوانا !

فالناس .. هم الذين يصلحون الزَمانَ بِصلاحهم ، ويفسدونه بفسادهم .
وأبلغ من قول الشاعر السابق مانهى الله عنه فى الحديث القُدُسى : ﴿ يسبُّ ابن آدم الدهر .. وأنا الدهر بيدى الأمر ، اقلِّب الليلَ والنهار ﴾ .

ولا يظنَنَّ ظانٌ أنَّ الحديث يعنى التسليم للقضاء والقَدَر . وإنما يعنى قبل كل شىء : أنَّ الانسان يرمى بعجزِه وكسلهِ وجهلهِ على الزمان قبل أن يستعين ـ على رضاء ربِّه وصلاح أمْرِه ـ بالايمان والعمل .

وإذن فالشعور بالمسئولية نحو النفس لايكون صحيحاً الا إذا نبع من نظرةٍ عميقةٍ بعيدةٍ ، تبحث عن الشمول والدوام . وهو ماقصدتُ اليه قصْداً بالقول : ( إنه ينقصنا ) وهو أيضاً التفسير المنطقى للشعور المتتابع بعده ـ بالمسئولية نحو المجتمع والوطن والأمة .

وعلى ضوء ماتَقدَّم .. نستطيع أن نتصورَّ كيف ينقصنا الشعور بالمسئولية تجاه أنفسنا كآباء وموظفين ومعلمين وتجار وعمّال إلى آخر من يضمهم مجتمعنا الكبير .. من طبقاتٍ مسئولةٍ عما التزمت به من واجبٍ وعما أُعْطِيَتْه من حقٍ ، من اجل صلاح الوضع العام ، وصدق الرسول المربىّ الحكيم فيما نبه إليه ووجَّه نحوه فى قوله : ﴿ كلكمُ راعٍ ، وكلكُم مسئول عن رعيته ﴾ .



# نحو علم نفس إسلامي

نتأملُ ونناقش خلال هذا الفصل بعض النظريات النفسية التى يزعم واضعوها أوالقائلون بها أو مُصدِّقوها : أنها علمٌ صحيح لايقبل النقض ، أوأنها حقيقةٌ نفسية ثابتة لاتحتمل الجدال .

من هذه النظريات الموصوفة بأنها علميَّة مؤكَّدة قولهُم : ( إن حالات النفس المَرَضيَّة من كراهيةٍ للذات أو للغير ـ أو بلادةٍ ذهنية ـ أوخمول واستسلام . . ترجع إلى طبيعة الإنسان المصاب ، وعدم تطبيقه القاعدة العامة الشاملة لكل البشر وهى : ( كلْ أو فأنت مأكول ) ولذلك فهو يدفع ثمن هذه الطيبة من لحمهِ ودمهِ وعصَبَهِ . .

وقولهم أيضا :

( إن من شرط الصحة النفسية فى نظر علماء النفس العصريين ـ ألاَّيكون الانسان طيّباً ، والايكون كريمَ الأخلاق ، ولاحسن الظن بالناس ، وعليه إذا خالف هذا الشرط أن يتحمَّل أكاذيب الناس ، وإساءاتهم ، واعتداءاتِهم ـ وماتعكسه على نفسيِّته من حقْدٍ ونَكَدٍ ، وهمٍّ وغمٍّ ، وكَسَل وخمول واستسلام للمتاعب والمصائب[1]

والعجيب الغريب فى أمر هؤلاء : أنهم يجعلون النفس الانسانية وِعاءَ خبْثٍ وشر . . بصفةٍ عامة وثابتة ـ وهو قرار خاطىء ، وحكْم ظلوم لايستند إلى علمٍ صحيح ولايعتمد على واقعٍ مشهود ، ولابرهان عليه من عقلٍ ولانقل ـ وهنا يظهر الفارق بين علم النفس الإسلامى وعلم النفس الحديث . . الذى نسميِّه ( علما ) تجُوُزاً لاحقيقةً .

---

( ١ ) الدكتور حسن محمد الشرقاوى فى مجلة الوعى الاسلامى ـ رمضان١٣٩٧

ان الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . والذى تمت كلماته صدقاً وعدلاً :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾

﴿ ونفسٍ وماسوَّاها فألهمها فُجورَها وتقواها ﴾ .

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة . . ارجعى إلى ربك راضيةً مرضية . . ﴾

فالإنسان أوالنفس الإنسانية فطَرَها الله عز وجل معدولةً سويَّةً :

﴿ خلَقَك فسوَّاك فعَدَلَك[1] ﴾

وألهمها معرفة الفجور والتقوى ، والخير والشر ، والحق والباطل . وهى فى معركة الحياة إما أن تكون غالبةً للهوى أوتكون مغلوبةً . وهنا تُرَدُّ إلى أسفل سافلين ، أى تنحط إلى مستوى البهائم والأنعام ، بل قد تكون أضل سبيلاً منها . وإذا كانت غالبة ، فهى إنما غلبت الهوى بإيمانها وعملها الصالح ، وبتواصيها مع غيرها بالحق ، وبالصبر ، وبالرحمة :

﴿ والعصر إن الانسان لفى خُسرٍ . . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ِ وتواصوْا بالصبر ﴾[2]

﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوْا بالصبر ، وتواصوْا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة ﴾[3] .

وفى الحديث القدسى : ( خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم )[4]

---

( ١ ) سورة الانفطار /٧

( ٢ ) سورة العصر

( ٣ ) سورة البلد / ١٧ ـ ١٨

( ٤ ) رواه مسلم

فالنفس البشرية . . خُلِقتْ أساساً وابتداءً معدولةً سويةً ، صافيةً نقيَّةً ، ولكنها ـ فى الوقت ذاته ـ قابلةٌ للانحراف والانكدار باختيارها ، لأنها تملك قوةً . . تستطيع أن تميز بها الطيب من الخبيث ، والخير من الشر ، والحق من الباطل ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرةٌ ، ولو ألقى معاذيره ﴾[1]

ومع أن الخالق الحكيم الكريم خلق النفس البشرية فى أحسن تقويم ، وعلَّم الانسان ما لم يعلم ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً ، وألهمه طريق الفجور وطريق التقوى ، ثم تَفَضَّل عليه بعد هذه التهنئة الفطرية السوية : بما أرسل إليه من أنبياء مُذكِّرين ، وبما أنزله معهم من كتبٍ مُبيِّنة . .

وكل الانبياء والرسل الذين تتابعوا خلال تاريخ الانسانية الطويل ، بما حملوا من كتب ، وبما تحدَّثوا به هم أنفسهم إلى أقوامهم ـ قد أتفقوا على أمريْن من أجل صلاح النفس البشرية . . فى كل زمان وكل مكان :

● الأمر الأول : عقيدة التوحيد لترتاح النفس الانسانية باتجاهها إلى رب واحد ، تخافه وترجوه وحده ، فلا تتنازعها آلهةٌ متعددة ، فتضل وتشقى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاءُ متشاكسونِ ، ورجلاً سلَمَاً لرجل . . هل يستويان مَثَلاً ـ الحمد لله ، بل أكثرُهم لايعلمونَ ﴾[2]

● الأمر الثانى : الدعوة إلى مكارم الاخلاق . . من صبر وإحسان ، وصفحٍ عن المسىء ، وبذلٍ للخير ، وكفٍّ عن الايذاء ، واستحياءٍ عن المنكر ، وأمرٍ بالمعروف ، واختيارٍ للطيب ، ونبذٍ للخبيث ، وإنصاف للناس ولو كانوا أعداء ، وشهادةٍ بالحق ولو كانت على أقرباء وأصدقاء . .

اتفق الانبياء كلهم على دعوة الناس إلى هذينْ الأمريْن : عقيدة التوحيد ، ومكارم الاخلاق ، وجاء الاسلام خاتماً للأديان ، ومصدِّقاً لها ، ومؤكِّداً للدعوة نفسِها إلى ذْينِك الأمريْن . .

---

( ١ ) سورة القيامة / ١٤ ـ ١٥

( ٢ ) سورة الزمر / ٢٩

ولنتأملْ ماجاء فى القرآن وفى حديث رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام . . من دعوةٍ إلى إعادة النفس البشرية إلى طبيعتها المعدولةِ السويةً ، الصافية النقية ، بإسلوبِ الترغيب والترهيب معاً ، وفى وقت واحد ـ يقول الله عز وجل :

﴿ ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة . . إدفعْ بالتى هى أحسن ﴾ .

﴿ وقولوا للناس حسناً . . ﴾

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .. ﴾

﴿ وإذا مرُّوا باللغْوِ مرُّوا كِراماً . . ﴾

﴿ وإذا ماغضبوا هم يغفرون . . ﴾

أما أسلوب الترهيب فيتجلىَّ فى الآيات التالية :

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ﴾ .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون ﴾ .

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لايستوون ﴾ !

وفى مدرسة النبوة نجد التوجيهات التالية :

( لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبَّ لنفسه ) .

( الكلمة الطيبة صَدَقة ، وكفُّ الأذى صدقة ) .

( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه ) .

( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره ) .

( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيراً أوليصمتْ )

( لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولاتدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ) .

( المسلم أخ المسلم .. لايظلمه ، ولايحقره ، ولايخذله ) .

إن أبواب الخير لكثيرة : تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتمِيطُ الأذى عن الطريق ، وتُسْمِع الأصم ، وتَهدِى الأعمى ، وتدل المستدل على حاجته ، وتسعى

بشدة ساقيْك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضـعيف . . فهذا كله صدقة منك على نفسك .

فـأين مبـادىء علـم النفس الاسلامـى . . من نظـريات علماء النفس العصريين التى تصف الانسان بأنه وعاء شرٍ وعدوان ، وتدعوه إلى التنفيس عن شهواته ورغباته المكبوتة بأن يكون ( آكلاً ) والا فهو لامحالة ( مأكول ) ؟!

أيـن عـلـم الـنـفـس الإسلامي الذي يكرم النفس البشرية ، ويحسن الظن بها و يـشوقـهـا إلى الـطـيبات ، و يستنبط ما في خزائنها من خيرات و بركات ممّن علم الـنـفـس الـعـصـري الذي يسيء الظم بها ، و يرى أن خزائنها تفيض بالحقد والشر والحـسـد ، وأنه لا بد لها من قذف شرورها وخبائثها على الغير . .وإلاّ أصابها اد والأمراض ، و باءت بالخسران المبين ؟!

وحسبنا هذه الآيات البالغة الدامغة :

﴿ قل لايستوى الخبيث والطيب . . ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ .

﴿ قل لايستوى الأعمى والبصير . . ولاالظلمات ولاالنور ﴾ .

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ .

* * *

ومن مبادىء علم النفس الإسلامى ووصاياه أن الطـب الوقائـى للنفس البشرية يبدأ منذ الطفولة ، ومن البيت ـ وهاهم اولاء علماء الطفولة وخبـراء الإجرام العصريِّين يؤكدون أن أكثر زوَّارهم هم ضحايا البيوت المنحرفة ، والأسر الممزقة . . التـى انصرف الآبـاء والأمهـات فيهـا إلى مشاغلهـم الخاصـة ، أوملاهيهم الآثمة ، والتى خلت من المودة والرحمة بين أفرادها صغاراً وكباراً . .

إن علم النفس الاسلامى يبدأ بطبهِ الوقائىّ منذ حث الأب على اختيار الزوجة المتدينة الصالحة : ( فاظفر بذات الدين تربت يداك ) ، وحث الزوجة بعد ذلك على طاعة زوجها ، وحفظ عرضه وماله ، ورعاية ولده : ( خير النساء من تسرك إذا نظرت ، وتطيعك إذا أمرت ، وتحفظك فى غيبتك فى نفسك ومالك .

ثم حث الأبوين معاً على أن يلزموا أولادهم ، ويحُسنوا أدبهم : ( إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم ) .

ولتحقيق الصحة النفسية فى البيت المسلم لايقتصر علم النفس الاسلامى على الدعوة إلى المودة والرحمة بين الأبوين فحسب بل تستمر الدعوة إليهما بين الأبوين من جهةٍ وبين الابناء من جهةٍ أخرى بعد أن حقق المنهج القويم السليم نشأتهَم السليمة فى ظل ِ أسرةٍ كريمة الأصل ِ والعشرةِ والسلوك . .

فتوجيه الآباء والأمهات إلى احسان تربية الأبناء ذكوراً وأناثاً يقابله تنبيه هؤلاء الأبناء إلى ( إحسانٍ ) مثلِه يعاملون به آباءهم وأمهاتِهم : ( وبالوالديْن احساناً ـ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلاتقل لهما أفٍ ولاتنهرْهما ، وقلْ لهما قولاً كريما ـ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : ربّ ارحمْهما كما ربيَّانى صغيراً ) [1]

ولنتصور أسرة تضم أبوين أو زوجينْ متفاهمينْ متوادَّيْن متعاونينْ على تربيةِ أولادهما ، والاولادُ ـ بدورهم ـ متفاهمون متوادُّون متعاونون مع أبويهم على تصفية ( نفوس ) الأسرة جميعاً من الكراهيةِ والحقدِ ، والحسدِ والنكد !!

من أين يأتى ـ بعد تطبيق هذا المنهج الاسلامى فى طب النفس البشرية الوقائى ـ مايسميه علماء النفس العصريون ( عُقَداً ) أو (مركبات نقص ) أو ( رغائب مكبوتة ) أو ( حِقْداً دفينا ) ؟

* * *

وإذا كان الخبراء النفسيون العصريون يقررون أن كثيراً من الأمراض النفسية والعصبية . . مرجعها ماوقعت عليه أنظار هؤلاء المرضى وهم أطفال من مشاهد جنسية لآبائهم وأمهاتهم ـ فقد سبق علم النفس الإسلامى إلى تحذيراتٍ وقائيةٍ تمنع حدوث هذه الأمراض النفسية والعصبية مستقبلاً ـ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانُكم ، والذين لم

---

( 1 ) سورة الاسراء / ٢٣ ـ ٢٤

يبلغوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ـ ثلاث عورات لكم ﴾ [1]

فالأطفال ممنوعون ـ فى منهج علم النفس الإسلامى ـ أن يقتحموا على آبائهم وأمهاتهم خلواتهم الثلاث : قبل الفجر ، وبعد الظهر ، وبعد العشاء ، فهى ساعات راحة ونوم ، وتحررٍ من الثياب الساترة ومباشرةٍ لما أحل الله لهم .

* * *

ولايكتفى علم النفس الوقائى الاسلامى بمعالجة قضية الجنس داخل البيت . . بل يتابع ملاحظتها ومراقبتها خارج الأسرة . . ذلك لأن منهج الإسلام التربوىَّ فى نظرته إلى قضية ( الجنس ) منهجٌ وسَطَ بين الرهبانية السالبة والإباحية المطلقة . . فهو يعترف به لأنه حقيقة واقعة بل هو فطرة إنسانية موجودة وأصيلة ، ولكنه ينظمها ويرسم ( للجنس ) طريقَ الأداء والعمل نظيفاً شريفاً لايهتك الأبواب ، ولايخلط الأنساب . .

فهو يحث على الزواج ، ويوصى الآباء أن يُيَسرِّوه على الشباب : فى قوله عز وجل : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ . . وفى توجيه النبى ﷺ : ( إذا أتاكم من ترْضون دينه وأمانته فزوِّجوه . . إلاتفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . . ) .

وصدق الرسول الكريم . . فقد وقعت الفتنة والفساد الكبير حين عوَّق الآباء زواج بناتهم ، وتغالوا بمهورهن ، وحين حاول الشباب الاكتفاء بالخدينات والعشيقات عن الزوجات الصالحات القانتات ، ووقعت الفتنة والفساد الكبير فى المجتمعات الغربية والعربية التى أطلقت العنان ( للمرأة ) فى مدخلها إلى البيت ومخرجها منه ، وفى المدارس والجامعات ، وفى الوظائف والأسواق . . فنشأت العلاقات والصداقات غير الشرعية بين الجنسينْ وأصبح ( الجنس ) هو كل شىء فى أنظار الفتيان والفتيات ، ولم يقتنع الرجال بزوجاتهم ، ولاالنساء

---

( ١ ) سورة النور / ٥٨

بأزواجهم . . فكانت تطلعاتٌ واشواق إلى الجديد البعيد ، أما القريب القديم فمشؤوم مذموم . .

* * *

ومن هنا تأتى الخطوة الثانية فى منهج علم النفس الاسلامى ـ بعد حثّه على الزواج ـ فيمنع الاختلاط بين الجنسينْ ويمنع الخلوة بين امرأةٍ ورجل غير مَحْرَمٍ : ( ماخلا رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ) وماذا مع الشيطان إلاالعبث والرفث والعدوان ؟

ويضيف المنهج القرآنى : ﴿ ولايُبْدِين زينتهَنَّ الالِبعُولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهنَّ ، أوأبنائهن أوأبناءِ بعولتهن ، أوإخوانهن ﴾ إلى آخر المحارم . .

كما يضيف : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾ ، ﴿ ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ـ وقل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم ـ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارِهن ﴾ .

وفى مدرسة النبوة النفسية : ( النظرة الأولى لك والثانية عليك ) .

هذه إشارات ولفتات خاطفة من علم النفس الاسلامى ، وهو علم كما أسلفنا إلّهى صادر من خبرة صحيحة بالنفس البشرية ، وحوافز فطرتها السوية ، وحواجزها أيضا . . ﴿ ولايُنَبِّئكَ مِثْل خبير . . ﴾ .



# الفصل الثالث

- المعلِّم يجب أن يكون أباً لطُلّابه ..
- ألوانٌ .. مِن أَخطاء المدرِّسين ..
- باسم التربيَة الحَديثة يُفسدون الشباب ..
- سَياسَة العَصَى .. وَتراجُعات الغربيّين ..



# المعلّم يجب أن يكون أباً لطلابه وأن يكون هاوياً لا محترفاً .

دعيت إلى ندوة تربوية أقامتها إدارة التعليم بمكة المكرمة فى مدرسة الامام مسلم - للحديث مع الرواد الاجتماعيين ، وطائفة من المعلمين حول منهج التربية الاسلامية فى إعداد المعلم وتأهيل الرائد لأداء واجبه التربوى . .

وبدأت الحديث مع رفاق المهنة ، بل رفاق الرسالة العظيمة بالاشارة إلى مكانة ( المعلم ) التى يجهلها هو نفسه قبل غيره ،. ويظل ينظر اليها كعمل ثقيل أو غير جميل ، ويتمنى الخلاص منها إلى عمل إدارى أو كتابى آخر . .

وقلت لهم : أن السر فى هذه النظرة المهنية إلى وظيفة ( المعلم ) : هو أن المعلم نفسه لايدرى حقيقة عمله ولايعرف كرامة مقامه ، ولا يدرك مدى مسؤوليته بالاضافة إلى أنه يؤدى وظيفته التعليمية محترفاً لاهاويا ، ويقوم بها آليا وليس بشعور الرضى والحب والشوق .

ألايكفينا - نحن المعلمين - شرفاً وعزة : أن رسول الاسلام ونبيه العظيم ﷺ يعلن ذلك فى قوله : ( إنما بعثت معلماً ) . . وفى قوله الآخر : ( العلماء ورثة الأنبياء ) أفبعد مقام الأنبياء مقام يشترى بالدنيا كلها : متاعها ومالها وجاهها - غير مقام العلماء ؟ والعلماء هم المعلمون بطبيعة الحال وتصديق المقال . والمقال هو ماأضافه الرسول المعلم فى ختام حديثه عن ورثة الأنبياء الذين هم ( العلماء ) فقال : ( انهم لم يورثوا درهما ولادينارا ، وإنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذ منه أخذ بحظٍ وافر )[1]

---

( ١ ) الحديث الأول رواه مسلم وأحمد والثانى رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

إن العلماء . . الذين يحفظون العلم فى صدورهم ، ولاينقلونه إلى غيرهم ، ليسوا علماء . . لأن واجبهم أن يورثوا العلم الذى تعلموه : للجهلاء علما ومعرفة ، وللسفهاء أمراً بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، ودعوة إلى الخير .

إذن فالمعلمون هم العلماء حقا ، وهم ورثة الأنبياء صدقا ، والرسول عليه الصلاة والسلام : إمامهم وقدوتهم بما أعلن عن نفسه وعن مهمته فى قوله ( إنما بعثت معلما ) فلماذا يحتقرون أنفسهم ، ولماذا يعينون غيرهم على احتقارهم ؟

ولماذا يؤدون عملهم الشبيه بأعمال الأنبياء محترفين آليين ؟ ولايقومون به هواة له ، معتزين به ، مشتاقين إليه ، مخلصين فيه ؟ . . إن أى عمل أو وظيفة يؤديها الانسان محترفا لا هاويا وآليا غير شاعر بحقوقها وواجباتها ، ولاراضيا عن أهدافها وغاياتها - إنما هى وظيفة عرجاء ، لاسويَّة ولارضية ، ولن يكون فيها إحسان ولاإتقان . .

والرسول المعلم ﷺ - يقول لنا نحن أمته التى شرفها الله وأكرمها وأعزها برسالة هذا الرسول الكريم : ( إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه )[1] كما يقول أيضا : ( أن الله كتب الإحسان على كل شىء . . )

وهناك مبدأ تربوى اجتماعى أهم وأعم أعلنه الرسول المعلم صريحا صارخا فى آذان الصم الغافلين فى قوله ﷺ : ( لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ) .

لقد تذكرت هذا التوجيه التربوى الاجتماعى الذى أعلنه نبى الاسلام والمعلم الأول للبشرية كافة وأنا أقرأ كلمة يرويها المتعلقون المتشدقون بآراء المفكرين الغربيِّين ونظرياتهم ومناهجهم الفكرية والتربوية - يروونها عن الكاتب البريطانى « توماس كارليل » فيقولون : أن شاباً يوشك أن يكون معلماً سأله : كيف أكون معلما ناجحا ؟ فرد عليه كارليل : ( كن على نحو ماتشاء أنت لطلابك أن يكونوا . . فكل تعليم بخلاف ذلك فهو نفاق وتدجيل !

---

( ١ ) أخرجه أبويعلى والعسكرى والطبرانى .

لاشك أن وصية كارليل جميلة ورائعة ، بل هى كلمة صدق وحق فالمعلم يجب أن يكون قدوة لطلابه ، وأن يتذكر يوم كان طالبا كيف كان يتمنى أن يكون استاذه مثاليا فى اخلاصه وسلوكه ، فيكون هو اليوم بين يدى طلابه كما يتمنونه أن يكون . . وبغير هذا « الاخلاص » فالتعليم نفاق وتدجيل .

* * *

ولكن المبدأ الاسلامى - فى منهج التربية الاجتماعية - الذى يرتب الرسول فيه كمال الايمان وجمال الاسلام على الحب المتبادل بين كل فرد فى المجتمع المسلم وبين أخيه . . لاينحصر فى مجال التعليم وحده ، بل يشمل كل مجال للحياة الاجتماعية دون تفريق أوتمييز

فالتاجر ينبغى أن يحب للمشترى منه مايحبه لنفسه لو كان هو مشتريا وأخوه بائعا . .

والموظف أوالعامل يجب أن يحب لمن يتعامل معه مايحبه لنفسه لو كان فى مكانه أو فى مثل حاله . .

والزوج ينبغى أن يعامل زوجته قولا وسلوكا بما يحب أن تعامله به ، وأن يؤدى إليها حقوقها الزوجية كما يحب أن تؤدى إليه حقوقه . .

والرئيس أو المدير . . يجب أن يحب لمرؤوسيه والمتعاملين معه مايحب لنفسه لو كان هو مرؤوسا أوصاحب حاجة أو مصلحة وكان هؤلاء هم الرؤساء أو المديرين . .

والمعلم ينبغى أن يحب لطلابه وتلامذته ما يحب لنفسه لو كان هو طالبا أو تلميذا ، وكان هؤلاء هم الأساتذة والمعلمين . .

وباختصار ، وفى جملة واحدة : كل حاكم أو رئيس أو ( راع ) كما هو تعبير التوجيه النبوى وتصويره لكل مسؤول إدارى أو تربوى - يجب أن يحب لمحكوميه أو مرؤوسيه أو رعيته مايحب لنفسه . وحسبنا توضيحاً وتأكيداً لهذا المعنى التربوى الاجتماعى قوله ﷺ : ( ألا كلكم راع . . وكلكم مسؤول عن رعيته ) . .

وهنا ينبغى ألا ننسى ـ ونحن نتحدث عن رسالة ( التعليم ) وشرف ( المعلم ) وما يجب عليه فى أداء عمله من إحسان وإتقان . أن الرسول ﷺ عندما أعلن أنه إنما جاء ( معلما ) للناس . . لم يكتف بهذه الصفة أو هذه الوظيفة لذاته الكريمة العظيمة . . وإنما أعلن أيضاً وفى الوقت نفسه قائلا : ( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) .

وبالتأمل فى الإعلان التربوى الثانى نجد أن فيه تنبيها مهما إلى أن التعليم المجرد أو الآلى أوالتعليم المتخذ حرفة وصناعة . . لاخير فيه ، ولانفع من ورائه لصاحبه ، ولاللناس الذين يعلمهم بل لابد أن يكون التعليم رسالة وهواية يمارسها المعلم بحبٍ وشوق وإتقان وإحسان ، ليكون لها أثر صالح وثمر مبارك . وهذا الأثر الصالح والثمر المبارك هما : مكارم الأخلاق .

فالمعلم إذن ليس ملقنا للعلوم فحسب بل هو محسن لتربية طلابه ، ومتقن لتوجيههم الوجهة الصالحة أخلاقياً ، ومقدم لنفسه بين أعينهم وأيديهم نموذجاً طيباً ، وقدوة حسنة . . ( والرائد . . لايكذب أهله .. ) كما جاء فى التوجيه التربوى النبوى الآخر . .

إذن فعلى رفاقى فى ميدان التعليم : أن يحبوا عملهم ، وأن يجلوا رسالتهم ، ويحبوا لطلابهم مايحبون لأنفسهم لو كانوا طلاباً ، أو يحبون لابنَائِهم الذين هم طلاب فعلاً من صلاحٍ ونجاح . وحسبهم شرفاً وفخراً : أنهم ورثة الأنبياء ، وأن الرسول الأعظم ﷺ قدوتهم فى هذا الميدان الشريف . .

* * *

وقد حضرت ذات ليلة ندوة علمية باحدى المدارس الابتدائية . . وكانت هناك لوحة معلقة على أحد الحوائط مكتوب عليها : ( المعلم أب ، ومن يجحد ذلك فليترك هذه المهنة ) ـ أى مهنة التدريس .

وكان لى تعليق وجيز على أحاديث تلك الندوة العلمية ، فتصديت لتلك الحكمة القائلة بأبوة المعلم ، ودعوت الحاضرين من المعلمين إلى أن يكونوا بحق ( آباء ) لطلابهم وأن يمارسوا مهنتهم الرفيعة مشدودين بعواطف الأبوة الرفيقة ، الحريصة

ـ فى الوقت ذاته ـ على صلاح البنوة ونجاحها ، وقلت : أن واجب المدرس أو المعلم كبير وخطير ، وهو واجب مقدس . ومن هنا كانت البشارة النبوية :

•( إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى بحرها . . ليصلون على معلمى الناس الخير ) . .

•( وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ) .

•( وأن خيركم من تعلم القرآن ، وعلمه ) . .

وفضل العِلم والمعلم المذكور فى التوجيهات النبوية ـ والقرآنية أيضا ـ ليس مقصوراً على تعليم الأمور الدينية ، بل يشمل التعليم من كل نوع إذا كان فيه خير ومصلحة للانسان فى معاشه ومعاده على سواء ، فالحديث النبوى الذى ذكرناه آنفا يقول : « ليصلون على معلمى الناس الخير » يعنى مطلق « الخير » فى دينهم وآخرتهم .

ويكفى المعلم شرفاً أن وظيفة الرسل هى تعليم الناس وتزكيتهم ، كما أبت القرآن الكريم ذلك فى آيات عديداتٍ منه : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1]

وكذلك المدرسون والمعلمون الذين يتسلمون الناشئة الطرية الفتية فى بواكير أعمارها . . يقومون بتعليمها وتزكيتها وإعدادها للحياة القويمة السوية ، الصالحة الناجحة ، بحيث تستطيع بعد ذلك أن تتسلم أعباء السلف ومسؤولياته وواجباته جيلا بعد جيل .

والقرآن والحديث النبوى . . إنما يثنيان خيراً على ( العالم المعلِّم ) . أما العلماء الذين لاينتفع أحد بعلمهم ، فلا أثر لعلمهم فى الناس ، وبالتالى لاإرشاد لهم ولاتوجيه نحو الآخرين ـ وفى الأرجوزة المعروفة . .

---

( ١ ) سورة الجمعة / ٢

وعالـم بعلمـه لم يعملن معـذب من قبـل عبـاد الوثن

إذن فالعالم الذى يتحـدث القـرآن أو الحـديث عن فضلـه وشرفـه هو « المعلم » المخلص فى عمله وتعليمه .

...

ومن الأمثلة التاريخية التى هى بمكانة القدوة الحسنة ، والأسوة المشرقة ، والمثل المضروب . . على عظم واجب المعلم ، وكبر حقه أيضاً - ما يروى عن الواثق بالله أنه عندما تولى الخلافة دَخَل عَليه هارون بن زياد ، فبالغ فى تكريمه وتعظيمه ، فقيل له يا أمير المؤمنين : من هذا الذى كرمته وعظمته وأهلته كل هذا الإجلال ؟ فقال الواثق : إنه أول من فتق لسانى بذكر الله ، وأدنانى إلى رحمة الله - يعنى أن هارون بن زياد كان معلماً له ، لذلك كان حقيقاً بما رأوه من إجلاله إياه ، والتحفى بمقدمه عليه .

وكذلك يروى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : أنه أخذ لزيد بن ثابت رضى الله عنه ركابه فقال له زيد : تنح يا ابن عم رسول الله ، فرد عليه ابن عباس : هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا !

وما أكثر الأمثلة والنماذج التاريخية التربوية فى حضارة الاسلام ، تلك الأمثلة والنماذج التى تقرر « مكانة المعلم » الرفيعة ، وترسم واجبه المقدس ، وتثبت حقه فى الاجلال والاكرام .

* * *

ويقودنا الحديث عن مهمة « المعلم » ومكانته ومسؤوليته - إلى الكلام عن علاقته بطلابه . . وما طرأ على هذه العلاقة الوثيقة التى قلنا : أنها تشبه علاقة الأب بابنه - من طوارىء عصرنا المادى . . الذى تخففت أوتحللت معاملات الناس فيه من روابط الخلق والروح .

أن كثيراً من طلاب اليوم يشكون جفافا وجفاء فى علاقاتهم بمدرسيهم ، ويفتقدون حنان الأبوة المفروضة فى معلميهم ، ولايجدون عندهم صداقة وودا ، ونصيحة . . كالتى كان يجدها طلاب الماضى فى معلميهم .

وبين يدى الآن تجارب بعض رجال التربية والتعليم الذين عرفوا مبلغ الدور الذى يقوم به المعلمون ، ومقدار الرسالة التى ألقيت عليهم أمانتها المقدسة . . إزاء تنشئة الشباب وتثقيفهم بالعلم النافع والخلق الرشيد .

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى عن علاقة المدرس بطلابه : إنها علاقة أخ كبير بإخوانه وأصدقائه الصغار ، قبل أن تكون مجرد علاقة مدرس بتلاميذه ، وأن ساعة الدرس ليست إلاوسيلة لتوطيد التعارف بينه وبينهم ، وليست البحوث التى يلقيها عليهم إلاطريقا لاكتشاف مشكلاتهم ، ومحاولة إيجاد حلول لها[1] .

ويقول : إن من الخطأ أن يدخل المدرس على الفصل بادئا حديثه إلى الطلاب بدرسه المنهجى ، وخاتما له بنفس الأسلوب ، دون تغيير أوتبديل .

ومن الخطأ كذلك : ألايتعرف المدرس على أسماء تلامذته وأشخاصهم إلا من خلال الواجبات المدرسية ، والامتحانات الشهرية أوالسنوية ، ثم هو بعد ذلك لايعرفهم ولايكلمهم ولاينبسط إليهم ، ولاينبسطون إليه .

ويرتكب المدرسون خطيئة كبرى حين يتخذون من منصة الدرس برجا عاجيا إذا ماجلسوا عليه تخيلوا انفسهم معلقين بالثريا ، ورأوا طلابهم دونهم إلى الثرى ، فهم لايرضون أن توجه اليهم من أسئلة الطلاب ومناقشاتهم إلا ما اتفق مع أصول اللياقة والأدب ، ولايسمحون لأى طالب مفكر أن يتجاوز معهم الحدود بنقاشٍ أوجدال .

* * *

ويخطىء مدرسو المواد الدينية ـ بصفة خاصة ـ عندما يصطنعون الغيرة على حرمات الله وأحكام دينه . فيقذفون بالسباب والملام فى وجوه الطلاب الذين يبدو منهم بعض التساهل أو التهاون فى أحكام الدين وآدابه أو عباداته ، أو الطلاب الذين يكثرون الجدل حول بعض شئون العقيدة وأصولها .

---

(١) عن كتابه ( تجربة التربية الاسلامية ) .

إن أى خطأ من هذه الأخطاء فى سلوك المدرسين . . من شأنه أن يفسد العلاقة الكريمة التى ينبغى أن تنشأ بين المعلم وطلابه ، ويجعلها مجرد عمل آلى يتمثل فى إلقاء الدرس ، وقبض الأجر فى نهاية الشهر .

وبديهى أن هذا الأسلوب الخاطىء ، أو هذا السلوك المنحرف ، الذى يسلكه المدرس ـ والمدرس الدينى بصفة خاصة ـ من شأنه أن يوقع الحيرة فى نفوس الطلاب بحيث لايستطيعون التوفيق بين المعلومات الدينية والخلقية التى صبها المدرس فى أذهانهم صبا جافا ، وبين الطريقة التى يجب أن يتم بها الانسجام بين سلوكهم الخاص وبين تلك المعلومات والخبرات ، إذ أنهم ـ مع الأسف الشديد ـ لم يلحظوا فى سلوك معلمهم مايصح أن يكون تطبيقاً سليماً أو قدوة عملية .

ومن هنا تنشأ فى عقول الطلاب وفى نفوسهم أشتات من الأفكار والنظريات حول الدين والخلق ، وحول « العِلْم » نَفسه ، حيث يتساءلون سرا أو علنا هل يجب أن يكون علما « ينفعل به سلوك الفرد ؟ أم مجرد ثقافة مؤهلة لحمل الشهادة ، ثم تيسر له سبل « الوظيفة » .

* * *

وفى كتاب « الفلسفة التربوية فى القرآن » يوجه الدكتور محمد فاضل الجمالى اللوم بل الاتهام إلى رجال التربية المسلمين . . لأنهم قلما يعنون بأساليب التربية القرآنية ، وقلما يستقون من معينها فى أداء واجباتهم التربوية ، ويقول : « أن هذا نقص فى ثقافتنا التربوية . . يجب أن ننتبه له ، ونعمل على تلافيه ، ونحن نسعى لتشييد صرحٍ ثقافىٍ جديد لأمتنا » .

والأساليب التربوية القرآنية ، التى يشير إليها الدكتور الجمالى ، ويتهم رجال التربية المسلمين بإهمالها ـ قال عنها فى صفحة سابقة : أنها آية فى الإعجاز والنفاسة ، وهى تتفق مع أرقى ماتوصل إليه الفكر التربوى قديما وحديثا . . كأسلوب التربية بالعمل ـ وأسلوب التكرار ـ وأسلوب التأثير فى النفس باثارة

العواطف - وأسلوب استعمال المنطق والمحاكمات العقلية - وأسلوب المثال والقدوة - وأسلوب التواصي والنصح المتبادل - وأسلوب الترغيب والترهيب - وقبول التوبة والغفران . . إلى غير ذلك من أساليب التربية الفعالة التي نجدها في القرآن واضحة بينة .

ان التربية القرآنية - كما يرى الدكتور الجمالي وهو على حق - ليست قضية حفظ لفظي للقرآن فحسب ، بل هي قضية إيمان وأخلاق . وقضية علم وعمل ، والمربي المسلم الذي يهتدي بفلسفة التربية القرآنية لايستطيع أن يجعل تربيته لفظيةً أو حفظيةً فقط !!

ومن الملاحظ أن الشباب المسلم - اليوم - يعيش في دوامة من الأفكار والمذاهب . . لايتبين معها طريق الاختيار والتفضيل . ومن أهم واجبات المدرس الديني ، كما هو واجب الدعاة والوعاظ - أن يفسح المجال لكل طالب كي يسأل ويناقش ، وكي يعترض وينتقد . حتى يتولى المدرس نفسه والواعظ والداعية أيضا - تبصرة هؤلاء الطلاب والشباب وتنويرهم بأسلوب يستمد تأثيره من أبوة حانية ، أو أخوة صادقة ، أومودة ناصحة ، ويضمن - أي هذا الأسلوب التربوي الاسلامي - نجاح المدرس أو الواعظ بتقويم انحراف هؤلاء الطلاب والشباب ، وردهم إلى الصراط المستقيم .

* * *

إن قرآننا الكريم يوجه إلى هذا الأسلوب التربوي السديد ، حين يأمرنا - في عديد من آياته البينة موضوعاته المختلفة - أن يدعو المسلم - كل مسلم - إلى سبيل الخير بالحكمة والموعظة الحسنة ، وألا يجادل خصمه إلا بالتي هي أحسن ، وأن يلين في مقاله طمعاً في تذكير الموعوظ ، وطلباً لخشيته ، وتحقيقاً لاستجابته وهدايته .

وحسبنا أن الله يقول لرسوله - وهو المعلم القدوة : ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب .. لانفضوا من حولك ﴾ أما سنته عليه الصلاة والسلام فتفيض بالتوجيه والتنبيه إلى هذا المسلك التربوي الحسن ، ومن أمثلته : لطفه ﷺ بالأعرابي

الذى بال فى المسجد ، وكاد بعض الصحابة أن يضربه ، ولكن الرسول ﷺ منعه ، وأرشد الاعرابى إلى أن المساجد لاتصلح لشىء مما فعل ، وكذلك لطفه بالشاب الذى جاء يستأذنه فى الزنا ، فقد أدناه منه ، وراح يسأله : هل يرضى الزنا لأمه ـ أو أخته أو لعمته أو لخالته : فيجيب الشاب : لا يارسول الله ، فيرد عليه الرسول ﷺ بعد كل إجابة : « وكذلك الناس ـ يا أخا العرب . . لايرضونه لأمهاتهم ـ ولا لأخواتهم ، ولا لعماتهم ، ولالخالاتهم ، ثم ضرب فى صدره بيده المباركة ، ودعا له دعوة مستجابة بالسداد والرشاد .

* * *

هكذا يجد المعلمون فى الاسلام ـ قرآناً وسنة ـ أفضل المبادىء التربوية ، وأجمل الأمثلة التعليمية . . لتصحيح سلوكهم مع أبنائهم الطلاب والشباب حتى يكونوا بأفكارهم وأشخاصهم قدوةً حسنة لهم ، ورحمةً سابغة عليهم ، وهدىً مبيناً بينهم .



# ألوان.. من أخطاء المدرّسين..

● ( من غشّنا فليس منا ) حديث نبوى ، معروفٌ عند أكثر الناس . . يتردّد على ألسنتهم دائماً فى مناسبات البيع والشراء ، وظروف الأخذ والعطاء ، وعند إبرام العقودُ والعُهود ، وحين يدعو الحال إلى الحث على الأمانة أو النهْى عن الغش [1]

وليس من همِّى ـ هنا أن أتناول معانى الحديث بالشرح أو التفصيل ، ولا من مقصدي أن أذكِّر الناس بعواقب الغش ، وثمرات الأمانة والوفاء ، ولكنى ذكرت هذا التوجيه التربوىَّ النبوى الذى يجعل ( الغشَّاش ) خارجاً عن جماعة المسلمين المؤمنين الصادقين ـ بمناسبة خطبةٍ خطبها أحد أئمة المساجد فى يومِ جُمعةٍ سابق . . روى خلالها هذا الحديث النبوى ، وذكر صوراً من الغش متعددة فى المعاملات التجارية بين الناس ، ثم قال الخطيب : « هناك نوع من الغش . . غش الأساتذة والمعلِّمين والكُتاب » .

فأعجبتنى هذه الفقرة الأخيرة عن الغش من خطبة الإمام الشجاع الجرىء . . لأنها حقٌ وصدق ، فهناك من المدرسين والمعلمين من يغش . . فلايخلص ولايحرص فى تعليم الطلبة وتفهيمهم ، ولا فى مراقبة نشاطهم وكسلهم ، ولايهمه أن يكون الطالب ـ وبخاصة الصغير فى المرحلة الابتدائية ـ قد وعى درسه وفهمه ، أم لم يفهمه ، وسواء عنده رُسوبُ الطلبةِ فى الامتحان ونجاحهُم .

ومن المدرِّسين والمعلِّمين فى المرحلة المتوسطة والثانوية ـ من يُملى على الطلبة من كراسة مقرر العام الدراسى كله مجرّد إملاءٍ ، بدون شرحٍ ولاتفهيمٍ ويكرِّر عَليهم القول ( من كان عنده استفسار أو استفهام فليأت فى المسجد أو فى المنزل ! ! ) .

---

( ١ ) أخرج الحديث الطبرانى وأبونعيم فى الحلية والقضاعى فى مسنده .

وحتى فى المرحلة الجامعية يملى بعض المدرسين على الطلبة إملاء مستمراً ، دون شرحٍ أو تعليقٍ أو تعقيبٍ . . ومنهم فى هذه المرحلة من يحيل الطلاب إلى كُتُبٍ متعددة يشترونها من السوق ، دون أن يرسم لهم منهاجاً ( للمادة ) التى يدرسهم إياها والتى سوف يُمْتَحَنون فيها ، ويرسبون أوينجحون . .

ومن المدرسين - بصفة عامة - من يستعجل فى تصحيح أجوبة الطلاب والطالبات فى الامتحان النهائى بصفةٍ خاصة - فراراً من حرارة الصيف داخلياً إن كان مواطناً ، وبداراً إلى إدراك العطلة خارجياً إن كان متعاقداً . . وما أكثر الضحايا من طلابنا وطالباتنا الذين تفهم أجوبتهم الصحيحة خطأً ، بفضل هذه العجلة . . بل هذا ( الغِش ) المدمر المؤذى فيسقطون ويذهب من عمرهم عام كامل هدَرَاً بغير حق . .

* * *

وخلال المؤتمر الرابع للمعلمين الذى انعقد فى الجزائر ، فى أوائل عام ١٣٨٥هـ تعالت صيحات جريئة مخلصة ، تؤكد عظم مسؤولية المدرس تجاه الطالب . . حتى قال نقيب المحامين السوريين فى المؤتمر يومذاك : « إن مانراه من أمورٍ غير إنسانية فى هذا العصر ، يُعَدّ المعلِّمون مسؤولين عن قسطٍ غير يسير منها » .

ولقد تحدثنا سابقاً عن شطر من مسؤولية المدرس ، على اعتبار أن وظيفته تشبه وظيفة الرسول ، قياساً على العلماء الذين هم ورثة الأنبياء كما قال ﷺ وقد صور شوقى هذا المعنى الجليل للمدرس فى قصيدته المعروفة - التى ذكرنا آنفا منها هذا البيت :

قم للمعلم وفِّهِ التبجيلاَ ... كاد المعلِّم أن يكون رسولا

ونضيف اليوم البيت الثانى من قصيدة شوقى :

أرأيت أعظم أو أجلَّ من الذى ... يَبْنِى ويُنْشِىء أنفساً وعقولا ؟

لقد صدق شوقى ، وصدق من أخذ عنه هذا المعنى ، وهو رسول الله ﷺ ، فليس أجل من عمل المدرس الذى هو إنشاء الأنفس ، وبناء العقول .

والمفروض أن يكون إنشاءً علىَ العلم النافع والحقِّ الرادع ، وبناءً على الخير الواسع والجمالِ الطَهُور . . ولن يتم هذا الإنشاء الصالح والبِناء الوثيق لأنفس الطلابِ والشباب وعقولِهم إلا على أساسينْ اثنينْ :

**الأساس الأول** : هو الحب الأبوى المشفق الحريص .

**الأساس الثانى** : هو القدوة الحسنة المؤثِّرة المعطاءة .

أجل .. إن المدرس هو الذى يربى القادة والساسة ، والعمال والموظفين والتجار والجنود ـ وهؤلاء هم اعضاء مجتمعهم ، وأبناء وطنهم ، وأجزاء أمتهم .

وما أكثر مايدور الحديث فى كل ندوة بين أصدقاء أدباء ، وفى كل مجلس أسرة يضم الأب والأم والأولاد ـ حول مناهج التربية والتعليم ، وإهمال بعض أولياء الطلبة أحياناً ، وتقصير بعض المدرسين أحيانا أخرى .

ويدور الحديث ويجرى الجدل ، كذلك فى هذه الندوات الفكرية بين رجال الأدب والمجالس العائلية بين الآباء والأمهات والأولاد عن مسؤولية الطلاب الذين لايجتهدون ، ويلعبون ولايجِدّون ، وعن واجب المدرسين الذين يهملون ولايخلصون ، ويقسون على طلابهم ولايُشفقون .

والواقع أن مسألة التربية والتعليم ، وما يحيط بها من مشكلاتٍ وعثراتٍ ليست بالقضية الثانوية أوالجانبية فى حياة الأمـة والدولـة ـ بل هى القضية الكبرى التى ينبغى أن تعالج بيقظة وحذر ، وأن تحل بإخلاص وصدق . كما يجب الانُؤخذ ببريقِ ما يطرح علينا من نظريات جديدة وافدةٍ من الخارج أونابعة من الداخل ، وأن يكون رفيقنا فى معالجة قضية التربية والتعليم فى بلادنا ـ الريْث والأناة ، والتفكير الطويل ، والصبر الجميل .

ونعود إلى قضية المدرس ، وهى جانب خطير من جوانب قضية التعليم الكبرى ، والحديث عنها ضرورى وملح ، ومن واجب رجال التربية والتعليم ألايفتروا عن الخوض فيه ، لكى تتضح جوانب هذه المسؤولية الخطيرة الموزعة على عواتق الآباء والأمهات من ناحيةٍ ، وعلى المعلمين والمدرسين من ناحيةٍ

أخرى . فمن المُلاَحَظِ ، الملموس المحسوس ، فى المدرسة الحديثة : أن العلاقة بين الطالب والمعلم لم تعد كما كانت من قبل علاقةً أبويَّةً حانيةً هاديةً ، فقد اكتفى المدرسون ـ أو معظمهم على الأقل ـ بأن يكون واجبهم أوتكون وظيفتهم : تلقين الأطفال المعارف المدرسية أوالمواد العلمية تلقيناً مجرَداً من عاطفة الحرص على النفع والانتفاع ـ حرصهم على أن ينفعوا وعلى الطلاب أن ينتفعوا . .

بل إن كثيراً من المدرسين يتكاسلون ويتعاجزون حتى عن واجب تصحيح الأخطاء التى يقع فيها الأطفال املاءً أو حفظاً أو فهما . . من هنا رأينا تخلف الطلاب بشكلٍ مؤسفٍ وبصورةٍ مخجلة فى سلامة الكتابة والقراءة والإدراك ـ هذا التخلف المزرى الذى يلاحقهم حتى المرحلة الجامعية فتجد معظمهم لايستطيع أن يقرأ جملةً واحدةً قراءةً صحيحةً من حيثُ الإعراب ، أوأن يكتب عبارة واحدةً كتابةً سليمةً من حيث الاملاء ، وأدهى من ذلك وأمر : أنهم يخطئون خَطَأً شنيعاً فى تلاوة آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ﷺ . . مماسبق لهم أن درسوا معانيه وحفظوا ألفاظه ، فى المرحلة الإبتدائية والمتوسطة .

إنها بلا ريب ظاهرة تنمّ عن جفاف المعين الروحى وقسوة النازع العاطفى . . الأمر الذى بَدَّل رسالة ( المعلم ) ، وحرَّف معناها القُدسُى ، وجمَّد روحيَّتها المباركة ، فأحالها الى وظيفةٍ ماديةٍ آلية . وهناك غير التخلف والضعف فى التلقى ـ الضياع والحيرة والقلق فى نفوس الجيل الناشىء يعود شطر كبيرٌ من أسبابها إلى انعدام العاطفة الحانية الهادية فى علاقة المعلم بالطلاب .

فلو كانت فى نفسية المعلم عاطفة الأب وشفقة المرشد ، لكان لهم منه ـ إلى جانب التعليم الموضوعى توجيهٌ إلى الخير ، ونُصحٌ بالبر ، وَحثٌ على الاجتهاد ، وعلى مكارمِ الاخلاق .

ولكن ( العكس ) هو الواقع مع الأسف الشديد . . رفْضٌ لاستفهام الطالب عما يَغْمُضُ عليه ، واستكبار على توضيح المبهم من الدرس أوتفصيل المجمل ، أو تصحيح الخطأ ـ إن وجد من المؤلف أو الطابع ـ واستعراض

للعَضَلات بتصعيب أسئلة الامتحان الشهرى أوالنهائى ، وتهـديدٌ للمعتـرض بالترسيب ، كأنما المعلم جلاَّد وليس مربياً !! والرسول المربى الحكيم يقـول : ( يسرِّوا . . ولاتُعسرِّوا[1] ) و( من لايرحم لايرحم[2] ) . .

أن تلك العاطفة الحانية الهادية التى يفقدها طلابنا فى مدرسيهم اليوم ، وقد كنا نجدها على عهدنا فى مدرِّسينا ـ يجب أن تحيا مرة أخرى فى الضمائر ، وتتحرك فى الجوارح كى تعود العلاقة بين المعلمين والجيل الناشىء أشبه ماتكون بعلاقة الآباء بالأبناء : حباً وتوجيهاً ـ أجل . . ينبغى أن يمنح ( المعلم ) تلامذته الحبَّ والأسوة ، فبالحب الحريص على النفع والانتفاع يؤدى المعلِّم واجب التعليم واضحاً ناجحاً ، لازغل فيه ولافشل .

وبالأسوة الحسنة التى يقيمها من نفسه أمام طلابه يؤدى رسالة التربية مُؤثِّرة مُثْمِرة ، وعندئِذ يكون بحق ( صانع الأجيال ) ـ كما وصفه الواصفون أو كما وصفه شوقى بأنه ( يبنى أنفساً وعقولا ) . . .



---

( ١ ) رواه البخارى وتمامه ( وبشروا ولاتنفروا )

( ٢ ) رواه البخارى فى كتاب الآدب .

# باسم التربية الحديثة

## يفسدون الشباب

لسنا ـ بحمد الله ـ من الغافلين عن التطور العلمى والتاريخى لفن التربية وعلم الاجتماع ، ولا من المنكرين لهذا التطور وآثاره النافعة ، وثماره اليانعة ، فى حياة الإنسان الحديث ، ولمصلحته فرداً ولخيره مجتمعاً . .

ولكن مانحاول بحثه ـ هنا ـ هو أن ( التطور ) فى أى مجال حيوى أو إنسانى . لايعنى إلغاء الأسس والأصول والمبادىء كلياً . . وإنما يعنى ـ فيما يعنيه ـ تنمية المفاهيم وتحسينها ، وإنشاء وسائل لتعديل المفاهيم أوتصحيحها . . تبعاً لتغيرُّ الأزمان واختلاف الأوطان ـ يضاف إلى ذلك : أن نظريات التربية الحديثة ، وعلم الاجتماع الحديث ، والعلوم الأخرى المستحدثة أيضاً ـ ماتزال موضع أخذٍ ورد ، ومجال نقاشٍ بين نَفْى وإثباتٍ ، وظهور الجديد والمزيد من عوامل التبديل أو التطوير فى مناهجها وأصولها معاً .

بعد هذا التقديم . . أشير إلى ما يتردَّد دائما على ألسنة بعض الكتاب الناشئين فى مختلف الصحف والمجلات العربية محلياً وخارجيا . . من كلماتٍ أوعنواناتٍ لأحاديث مثل قولهم :

- هذه التصرفات لم تعد صالحةً فى مفهوم التربية الحديثة !
- والسجن ليس عقاباً ، وإنما هو إصلاح وتهذيب !
- والقاتل ليس مجرماً ـ ولكنه مريض ! .

إنهم يختطفون هذه الكلمات أو العناوين أو الشعارات من أبحاث علميةٍ واجتماعيةٍ مطوَّلة مفصلة ، ويبترونها من أصولها ، ويخدعون بها أنفسهم والقراء ، ويسعون بها فى مجتمعهم ـ من حيث يدرون أو لايدرون ـ فساداً أو إفساداً .

فالسجن ـ مثلا ـ عقاب عملاً وواقعاً ، قبل أن يكون لفظاً أو حُكْماً ويجب أن يكون هذا مفهومه فى ذهن المذنب ، وفى أذهان أفراد المجتمع كله . .

وإلا فلن يكون ثمة زجْر وازدجار ، وردع وارتداع . ولو تحَوّل ( السجن ) كما يريده هؤلاء المخادعون المخدوعون ، إلى ظل ٍ ظليل من متاع المأكل والمشرب والملهى وأنواع التسلية والرياضة لارتكب كثير من العاطلين والفاشلين والمتواكلين ( الجريمة ) عمْداً كى يدخلوا جنة الدنيا هذه ، ليجدوا فيها راحة الطاعم الكاسى ، بل ليجدوا فيه مالا يجده الطلقاء الأبرياء !!

وما نتمسك به من الالتزام بالمعانى والمقاصد فى موضوع السجن ـ لايعنى طبعاً الاّتفهّمَ نفسيةُ المذنب وبيئتُه ودوافعُه إلى ما اجترح من جريمةٍ لازمةٍ أومتعديةٍ[1] والظروف التى احاطت به حين ارتكب الذنب . . فكلتا النظريتين . . نظرية ( السجن عقوبة ) أى إيلامٌ وزجرٌ . . ونظرية ( تَفَهّمُ أحوالِ المجرمِ وظروفهِ ودوافعهِ وتقرير العقوبة على ضوئها ـ يقرهما التشريع الاسلامى ويقول بهما تطور علم الاجتماع الحديث ، أو ما أطلق عليه حديثاً ( علم التحقيق الجنائى ) ولكن دون التفريط فى الحقوق والحدود ، ومع الاهتمام بالأصل الأول فى تقرير العقوبة وهو الزجر والازدجار . . اللذان يعنيان بكل وضوح ـ حماية الأمن العام فى المجتمع الانسانى ، ومنع تجرىء الآخرين على انتهاك الحرمات أوالكرامات أوالحقوق .

ولذلك نجد القرآن حين يقرر عقوبة السارق والسارقة ـ وهى قطع اليد ـ يعلل ذلك بقوله : ﴿ جزاءً بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم ﴾ وحين يقرر عقوبة الزانى والزانية غير المحصنينْ ـ وهى الجلد ـ يحذِّرنا من خداع العواطف الإنسانية بقوله : ﴿ ولاتأخذْكُم بهما رأفةٌ فى دِين الله ﴾ .

وقد توصّل علماء الطب النفسى والطب البدنى ـ كما يقول الدكتور ابراهيم الرواى ـ إلى أن العقوبة البدنية المؤلمة للمذنب على مشهدٍ من الناس ذات أثر بعيدٍ فى التأديب والترشيد[2] .

---

( ١ ) اللازمة كالانتحار أو محاولته ، والمتعدِّية : أى جنايته على غيره من الناس بسرقةٍ أو ضربٍ أو قتل أو زنا الخ . . .

( ٢ ) مجلة ( حضارة الاسلام ) سنة ١٣٩٥ هـ .

إذن فلا داعى ، ولامبرر لترديد هذه العنوانات ، أو الشعارات الخوادع : ( السجن ليس عقاباً ) و ( السجن اصلاحٌ وتهذيب ) و ( القاتل ليس مجرماً ) مع أن الله عز وجل وهو الخالق للقاتل والمقتول - يقول فى كتابه الكريم : ﴿ من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ . وهل هنالك جريمة . . أكبر من ذلك ؟

وبالتالي: لا مبرر لإرسال الدعوات والنداءات من أجل إنزال الرحمة بالقَتَلة، وسَفّاحي الدماء، ومنتهكي الأعراض، وسالبي الناس أمْنهم وراحتهم وأموالهم.. بدعوى: أنهم مرضى محتاجون إلى طبيب وأطباء، ولا داعي كذلك إلى المطالبة بتحويل السجون إلى مستشفيات ومنتزهات تتحقق فيها الراحة والبهجة وقراءة الصحف والمجلات، والاستماع إلى أجهزة الراديو والتلفاز.. والا فسوف يتحوّل — كما أسلفنا — كثيرٌ من العاطلين والفاشلين والمتواكلين إلى مجرمين — باختيارهم — ليستمتعوا في السجون بما لا يجدونه خارجها في حياتهم العادية من ترفيهٍ وتطبيبٍ وألعابٍ رياضيةٍ بالمجان.

* * *

● هذه واحدة . . عن الجريمة والعقاب ، وحقيقتهما . .

● أما الثانية . . فعن تصرفات الآباء والمعلمين تجاه الأطفال . .

تقول إحدى المتحذلقات - فى مجلة عربية - : إن إلقاء الأوامر على الأطفال - ومطالبة الطفل بعدم الاحتكاك بالآخرين - وتكليفه بالاذن فى كل تصرف أو سلوك . . وتعليمه أو تدريبه على أن يحافظ على نظافة جسمه وثوبه . . كل هذه التصرفات تزعم الكاتبة المتحذلقة : أن علماء التربية الحديثة أثبتوا عدم صلاحيتها ، وأنها تورث عند الأطفال الخوف والشعور بالذل وعدم النجاح فى الحياة ! ! هكذا : حكمٌ وزعمٌ وارتجالٌ باسم مفهوم التربية الحديثة ، وبإسنادٍ إلى علمائها الأبرياء . .

ولنبحث التصرف الأول : وهو إلقاء الأوامر على الأطفال . هل صحيح أنه يجب إلغاؤه وهل الأطفال جميعاً ، وفى كل الأوقات والظروف والأحوال تتفق طبائعهم واستعداداتهم على استقبال الرجاءات الليِّنة لإنفاذ أمرٍ أو اجتنابِ نَهْيٍ ؟ وهل الأطفال بنفس تلك الاعتبارات الزمنية والطبيعية ، مدركون لمنافِعهم ومضارِّهم ؟ وما الفرق - اذا كان الحال كذلك جَدَلاً وفرْضاً - بين الرجال الراشدين والأطفال القاصرين ؟ ولماذا كان هناك قديماً وحديثاً : مربُّون وعلمٌ للتربية ، ومدرسون ومعاهد للدراسة ؟

● الإجابة على هذه التساؤلات الإستنكارية ، فى ضوء الواقع الطبيعى والحياتى للطفولة ، وواجب الأبوة والأمومة نحوها - تكفى لبيان وجهِ الحق والصواب فى هذا الجانب من الموضوع .

فهناك أطفال - شأن الكبار أيضاً - يمتازون بعنادٍ وإصرار على ايذاء الآخرين ، وتخريب أملاكهم . . ولايجدى معهم حديثٌ بالحسنى ، ولا رجاءٌ بالإقلاع عن العدوان ، والوسيلةُ الوحيدة لتأديبهم هى الزجر بالقوة والأخذ على أيديهم بالشدة . .

أما مطالبة الطفل بعدم الاحتكاك بالآخرين - التى تدعو الكاتبة المتحذلقة باسم مفهوم التربية الحديثة الى الغائها - فقليلٌ من مناقشتها وبحثها يكشف لنا مدى الخطأ الكبير فى رأى الكاتبة ، وتقويلها لعلماء التربية الحديثة ما لا يقولونه أوقالوه مع التحفظات اللازمة : من حذر ومراقبةٍ وتنبيهٍ وتوجيهٍ عند اللزوم . . ذلك أن العدوى السلوكية مسلَّم بسريانها من الأطفال الأشقياء الى الطيبِّين إذا اصطحب الفريقان . والطفل بطبيعته ، لضعف إدراكه وقلةِ معلوماته : سريع النقل أوالاقتباس دون فهمٍ ومن غير وعيٍ . . ومن هنا جاءت التربية الإسلامية - وبخاصة فى التوجيهات النبوية - تأمر الأب بتأديب ولده ، وإحسان تربيته ، ومراقبة سلوكه ، وبضربه إذا لزم الأمر .

والتصرف الثالث الذى تدعو الكاتبة المتحضرِّة إلى إلغائه هو مطالبة الطفل بالاستئذان فى كل تصرفٍ له . . بدعوى أن علماء النفس يرون فى الطفل

شخصيةً مستقلةً ، وليس آلةً تتحرك ، أو إنساناً غير موثوق به !

ماشاء الله ! ! الطفل شخصيةٌ مستقلةٌ وإنسانٌ موثوق به ! وإذن فلاداعى الى تربيته وتعليمه ، ومراقبته وتقويمه . . وليتصرفْ كما شاء دون استئذانٍ من أبيه أو أمّه ، ودون تأدّبٍ مع معلّميه ومربّيه !

إن بيت أبى العلاء المعروف « هذا كلام له خبىءٌ . . معناه ليست لنا عقول »ينطبق على هذا الهُراء عن الطفل واستقلالِ شخصيته ، ووجوبِ ترك حَبْلِه على غاربه ، لأنه ـ بزعمها أنه إنسانٌ كاملٌ وموثوقٌ به .

فوراءَ هذا الكلام الخبىء سوءُ نيَّةِ قائِلِيه ومروِّجيه . . ليفسدوا علينا فى مجتمعاتنا الإسلامية تربيةَ أولادنا ، تهيئةً لمستقبلٍ سيىءٍ تضطربُ فيه الإدارةُ والسياسةُ والقيادة . .

وقد نبَّه الى مثل ذلك الدكتور عبدالمنعم المليجى فى كتابه ( خبراء النفوس ) عند حديثه عن بدعة اختبار الذكاء إذ قال : إن علماء النفس الأوروبيين ـ هؤلاء ـ يهدفون بهذه البدعة الى تمييز البيض على السُود فى أفريقيا التى كانوا يستعمرون شعوبها !

وقد كتبت عندما سرت عدوى هذه البدعة إلى مناهجنا التعليمية قبل نحو خمسة عشر عاماً ـ عن خطئها وخطرها فى جنايتها على ضعاف الطلاب حين يفتقدون روح المنافسة بينهم وبين الأذكياء بفصلهم عنهم ، وإعطائهم مستوىً تعليميّاً أقل ، وقلت : إن المنهج التعليمى الإسلامى يفرض المساواة فى الفصول والمناهج ليتاح بين مختلف المستويات الطلابية : الاقتداءُ والسِّباق . . وهذا مايحدث فعلا ونراه واقعا بين الطلاب .

★ ★ ★

على أن هنا فرقاً بين أن يعامل الطفلُ كحيوانٍ ـ وبين أن يعامل كمخلوقٍ ضعيفٍ يحتاج إلى رعايةٍ وعناية، وإرشادٍ وتوجيه ، حتى نحقّق له نماءً لجسده وذكاءً لإدراكه .

أما أن نزعم - باسم علم النفس والتربية الحديثة : أنه شخصيةٌ مستقلة ، وإنسانٌ موثوقٌ به ، ومأذونٌ له بتصرفاتِه دون رقيبٍ أوحسيب . . فهذا هو ( جهل النفس ) بعينه . . لا ( علمها ) ومكابرة للطبائع والحقائق الانسانية والعلمية والتجريبية .

وسيكون - على رأى الكاتبة المنسوب إلى علماء النفس والتربية الحديثة - من حقِّ الأطفال أن يذهبوا الى المدارس ليتعلَّموا أو لا يذهبوا ليبقوا جهلاء - وأن يسلكوا مع آبائهم وأمهاتهم وجيرانهم أىَّ سلوكٍ يشاؤونه صالحاً أو طالحا ، فهم أصحاب شخصيات مستقلة ، ورجالٌ موثوق بتفكيرهم وتدبيرهم !

أما التصرف الأخير . . فأعتقد أن علماء الصحة يُنكرونه على علماءِ التربية الحديثة ، إن صح زعم الكاتبة أنهم قالوا بعدم مطالبة الأطفال بالمحافظة على نظافة أبدانهم وثيابهم ، وبتركهم يمرحون ويسرحون فى الأتربة والأوحال والرمال ، دون تنظيمٍ وتوجيه !!

* * *

وهكذا باسم التربية الحديثة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع يحاولون فى شرقنا العربى الإسلامى : أن يقلبوا الأوضاع الطبيعية رأساً على عقب - ومسكين هذا ( العلم ) الذى باسمه يراد نقل البشرية إلى جهالةٍ جهلاء ، وضلالةٍ عمياء .



# سياسة العصي .. وتراجعات الغربيين

عندما ننظر فيما حولنا ـ من المجتمعات العربية أو الاسلامية ـ نجد أن تمرّد الأحداث على البيت أو المدرسة وانحرافهم عن آداب المجتمع .. قد سرت عدوى ذلك اليها من المجتمعات الغربية عَبْر صحفها ومجلاتها وكتبها ، ومن خلال إذاعتها وأفلامها السينمائية وكل أجهزتها الإعلامية والثقافية ، وعن طريق اقتباس مناهج التربية والتعليم من معاهدها وجامعاتها .

لقد خطف المسؤولون عن مناهج التربية والتعليم ، القائمون بتطبيقها فى المجتمعات العربية والاسلامية : النظريات الاولى من العلماء الغربيينَ .. دون أن ينتظروا نتائج تجاربها ، وقبل أن يعرفوا الآراء الأخيرة لأصحابها الذين اطلقوها بادىء الرأى دون مراجعةٍ أو تجربة ، ثم عادوا فتناولوها بالتفسير والتصحيح ، بعد أن أدركوا أن التوجيه الرقيق وحده لا يكفى لتحويل الأطفال من عمل سيء أو خُلُق شائن الى عكسه .. ما داموا يجدون فى ذلك مَسرَّة ولهْواً . لأنهم بطبيعتهم الفطرية لا يملكون عقولاً ناضجة يتدبَّرون بها ما يلقى إليهم من توجيهٍ رفيقٍ دائماً فيقتنعون به . كما لم يُؤتَوا عَزْمَةَ الرجال التى تجعلهم يتحَوّلون سريعاً عن العمل السيء أو الخُلُق الشائن .. مضحِّين بما يجدون فيه من لذةٍ ومتعةٍ وهناء ..

وتبعاً لذلك الخطْفِ لمناهج التربية والتعليم الموضوعة فى الغرب ـ وتطبيقها السريع فى المجتمعات العربية والاسلامية .. قامت ظاهرة التمرد والانحراف بين الاطفال والاحداث ، فساء أدبهم مع آبائهم وأمهاتهم ، وقل احترامهم لأساتذتهم ومدرسيهم ، وفشت فيهم فاشية الغش فى الامتحانات نتيجةً لتكاسل

الطلاب طوال العام الدراسى ، ولإهمال المعلمين سياسةَ الحزم والإخلاص .. فى إلقاء الدروس وتفهيمها للطلبة .

يضاف الى ذلك عدم ترهيب الطلاب بنظام يفرض العقاب الشديد الرادع على الطالب الكسول ، والطالب الغَشاش ، والطالب الذى يتغيَّب كثيراً حتى تكون له عظة فى نفسه ، زاجرة لغيره ، فيعدل الى الحرص والاجتهاد والاهتمام ..

وقبل ان نواصل الحديث فى هذه القضية التربوية ـ نضرب مثَلاً على ما أسلفنا فى الفقرة الأخيرة ، وهو ما تعَوده بعض الطلاب والطالبات من تخلُّف عن الحضور فى بداية استئناف الدراسة بعد عطلة العيدين ، وغياب قبل موعد الامتحانات النهائية ، هؤلاء الطلاب والطالبات لا يلقون جزاءً ولا ينالون عقاباً . وإنما الذين يعاقبون هم الذين يحضرون ، فيمتنع المدرسون عن مواصلة القاء الدروس حتى يحضر الغائبون تكريما لغيابهم ! وتعظيما لشأنهم !

وكان أقل عقاب فى نظرى للغائبين : أن يواصل المدرسون تدريبَهم للحاضرين ـ ولو كانوا خمسة طلاب من أربعين ، دون أن يعاد ما فاتهم من دروس . وبالنسبة لمن يتغيب من الطلاب قبل الامتحان النهائى يجب ان يتابع المديرون والمدرسون اهتمامهم باتمام المقرَّرات أولاً ، ثم بمذاكرة الطلاب فيما اتموه .. لا أن يبتهجوا بغياب معظم الطلاب لتغيب الأقلية الحاضرة بعدهم .. قائلين لأنفسهم اعتذاراً واقتناعاً : ( لم آمرْ بها ولم تسوءْنى ) .

* * *

ونعود الى ظاهرة التمرد بين الاطفال الفتيان فى المجتمعات الغربية نفسها . وعندما نتعمق فى بحث أسبابها ، ودراسة هذه الأسباب مقرونة بالنتائج ، ونرجع الى ما يقرره رجال التربية والتعليم وعلماء النفس والاجتماع من الغربيين أنفسهم نجدهم يعترفون بصراحة وشجاعة : بأن أهم أسباب تمرد الأحداث والفتيان على نظام الأسرة ، وآداب المدرسة ، وقوانين المجتمع ـ إنما هو اتجاه نظريات التربية ـ بعد الحرب العالمية الأولى ـ إلى سياسة الإغضاء على أخطاءِ هؤلاءِ الأحداث

والفتيان ، والدعوة الملحة الى اجتناب العقوبة البدنية بزعم الخوف من إصابتهم بالعُقْدة النفسية الموهومة ..

وقد بدأ هذا الاتجاه الخاطىء فى تربية الأطفال عندما انتشرت آراء ( جون ديوى ) و ( سيجموند فرويد ) وأحيطت بهالةٍ من الدعاية الكاذبة ، زيَّنتْ لرجال التربية والتعليم تجنب ضرب الأطفال ، وأغرتهم بالتسامح معهم وتركهم يفعلون ما يشاءون ، ويتصرفون بما يريدون ليجربوا - بزعمهم - الخطأ والصواب من تلقاء أنفسهم ، وبدون توجيهٍ من المعلِّمين او إرشاد من الآباء . وقد يكون ترك هذا الاختيار أو هذه الحرية مقبولاً أو معقولا لمن أتم دراسته الثانوية أو أقبل على الدراسة الجامعية . أما من كان فى المرحلة الابتدائية والمتوسطة ، فذلك بالنسبة لهم خَطَأ وخَطَل وضياع .

إن آثار ذلك المنهج التربوى الخاطىء قد ظهرت سيئةً مفزعة مُفجعة على أطفال جيل العقد الثالث من القرن العشرين ومَنْ بعدهَم من أجيال الى يومنا الحاضر ؛ فهبَّ ديوى وفرويد نفساهما يُنْكران الإغراق فى التساهل مع الأطفال ويقولان : إنه سبيل تنمية المزيد من الرغبات والنَزَوات فى نفوسهم ، وعاملٌ قوىٌ على اغرائهم بالتمرد والانحراف - الأمر الذى يُفقدهم القُدرْة على معالجة ما يعترض سبيلَهم مستقبلاً من هموم ومشكلات وعقَبَاتٍ ..

* * *

ويقرِّر ( ديوى ) و ( فرويد ) فى الوقت ذاته : أن المهمة الرئيسية للتربية هى أن يتعلمَ الطفل كيف يسيطر على غرائزه ، وأن من الخطر الفادح أن يُمْنَح الحريةَ التامة ليمارس نوازعه ومطامعه دون قيدٍ أو شرطٍ ، فإن ذلك يجعل حياة الآباء فى شقاءٍ لا يطاق ، وينزل بالطفل نفسه أبلغ الاضرار .

وهناك من تراجعات علماء التربية والتعليم الغربيين شىء كثير ، وبخاصة تراجعهم عن القول بمنع العقوبة البدنية للأطفال لأنها كانت نظريةً ارتجاليةً لم تصمد أمام التجربة والامتحان - فهذا عالم النفس الأمريكى ( بيتر كرانفورد ) يجرى عَدداً من التجارب والاستفتاءات مع الآباء والأمهات ، ورجال التربية

والتعليم ، وعلماء النفس أيضاً ثم يخلص ـ بعد ذلك ـ إلى نظريةٍ تربوية تنادى ( بالتأديب ) وترسم طُرُقاً ثلاثاً :

● الاولى : مكافأة الطفل على حسن سلوكه ، وهى اضعف الطرق .
● الثانية : عقابه على مسلكه السيء ، وهى أفضلها .
● الثالثه : الجمع بين المكافأة والعقوبة ، وهى أحسن الطرق الثلاث المقترحة لتربية الأطفال والأحداث .

ويقول ( كرانفورد ) إنه كلما بَكَّر الأبـوان بتأديـب أولادهما استقـرت فى أذهانهم عاداتٌ سليمة تتأصَّل فى نفوسهم فتلازمهم طوال حياتهم ، ويضيف : أن تأخير المكافأة والعقاب يذهب بأثر هذه السياسة التربوية لذلك يجب أن يبادر الأبوان بضرْب الطفل فَوْرَ ارتكابه أى خطإٍ أو ذنب ، ومكافأته أيضاً فَوْر صدور أى تصرف حسن منه ، لكى يستقر فى ذهنه اقتـران المكافـأة بالاحسـان ، والعقوبة بالإساءة .

ويدعو ( كرانفورد ) فى نظريته التربوية الحازمة الى تكرار المكافأة للطفل المحسن ، وتكرار العقوبة للطفل المسيء ولذلك سُميت نظريته : ( طريقة الجزاء المتكرر ) ، ذلك لأن التكرار من شأنه تعميق الأثر ، وتجديد المفهوم فى نفس الطفل الذى عومل بالجزاء الوفاق لما اكتسب من خيرٍ وشر .

ويُنْهى ( كرانفورد ) نظريته بألا يكون ضرب الطفل للانتقام أو الإيلام والاَّ يكون بأسلوب عنيف قاهر ، وإنما يكفى أن يكون الضرب رمزاً يسوء الطفلَ ولا يؤذيه ، على أن تصحبه نظرة استياء ، وكلمة اشمئزاز تشعر أنه بخطأ ما ارتكب من عمل سيىء أو سلوك مشين .

* * *

ان نظرية ( كرانفـورد ) هذه هى نظريتنـا العربيـة الاسلاميـة القديمـة الحكيمة ، التى انصرفنا عنها إلى نظرياتٍ تربويةٍ غربيةٍ تافهة ، بل مخرِّبـة للضمائر ، ومفسدة للعقول ، ومحرِّفة للأخلاق .

لقد كان العرب يقولون - فى أمثالهم - ( علّق سَوطك بحيث يراه أهلك ) ثم جاء الإسلام فتحدث قرآنُه ورسوله صلى الله عليه وسلم عن أهمية تأثير الآباء والأمهات فى تربية أولادهم وعن ضرورة تأديبهم ، وعن مسؤوليتهم الكبرى فى مصاحبتهم بالترشيد والتوجيه .

* كقوله صلى الله عليه وسلم ( إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم ) .

* وقوله : ( ما نحل والد ولده أفضل من أدَب حَسَن ) .

* وقوله : ( مُروا أولادكم بالصلاة لسْبعٍ ، واضربوهم عليها لِعَشْرٍ ) .

* وقوله للمرأة التى وعدت أن تعطى طفلَها تمرةً : ( أما انك لو لم تعطه لكُتبِت عليك كذبة ) .

ونضيف الى ذلك : أن الكتب السماوية وفى مقدمتها القرآن الكريم حافلةً بالترغيب والترهيب ، تَعِدُ المحسن بالجنة وُتنذر المسيء بالعقاب ، وفى تربية الاولاد بالذات أوصت العقائد الدينية الشرعية والوضعية بالعقاب البدنى كوسيلة للتهذيب والتأديب ، هذا الى جانب ما وضعه علماؤنا السابقون من رسائل فى ( آداب المعلمِّين والمتعلمين ) كالغزالى وابن خلدون والقابس وابن سحنون وأمثالهم ، وكلها تؤكد مبدأ الحزْم والشدة فى تربية الأولاد فى حدود المنطق والعقل ، وبدون إسرْافٍ ولا احجاف ، وعلى مقدار الحاجة والضرورة .

* * *

إن الذين ينادون فى المحيط العربى والمحلى بإلغاء سياسة العصى محتجِّين بنظريات التربية الحديثة الوافدة من الغرب يجهلون أو يتجاهلون أن سياسة العصى هذه نافذة فى مناهج التعليم الغربى وانها لم تلغ نهائيّاً أو كليّا من المدارس والمعاهد هناك .

فهناك المحكمة الامريكية التى رفضت النظر فى طلب أحد الآباء تعويضا من المدرس الذى أرغم ابنه على وضع وجهه الى الحائط وضربه بكفه على

ظهره ، وعللت المحكمة رفضها للدعوى بقولها : ( إن حالة المدارس لا تسر ، ويجب وضع حدٍ للفوضى التى انتشرت بين الطلاب ، وعلى المسؤولين عن التعليم ان يلجأوا الى شيء من الحزم فى معاملة التلاميذ ) .

وهنا نحب أن نذكر ان طائفةً من فقهاء الاسلام قالوا بأنه لا ضمان على المعلم اذا أدىً تأديبُه للصبيً الى تلف بعضِ أعضائه .. لان التضمين سدٌ لباب التعليم وبالناس إليه حاجة[1]

ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر احد رجال التربية والتعليم فى مصر ، وقد شغل منصب عميد كلية العلوم فيها : إن التجربة التى أودُّ أن أهديها الى ابنى : هى الدرس الذى علمتنى اياه عصى المدرس .. لقد كان بيتى يبتعد عن المدرسة خمسة كيلو مترات ، وكل دقيقة يتأخرها الطالب عن موعد الدراسة كان جزاؤها عصى غليظة تنزل على يدٍ ممدودةٍ ترتجف خوفاً . لقد أخذت العصى مرةً وبعدها أصبحت أبذل كل ما أطيق فى سبيل تأدية واجبى وضبط مواعيدى ، وأصبحت اذا وعدت لا أخلف واذا قبلت عملا أقوم به خير قيام . هذه هى التجربة التى أثرت فى حياتى ولولاها ما وصلت الى ما أنا فيه[2]

هذا ما يقوله احد رجال التربية والتعليم ارتقى الى مرتبة العمادة لكلية العلوم فى بلده ، وهو يقرر فيما قاله أن ضربةً واحدةً من يد معلمه جعلته على صراطٍ مستقيم .. لا بالنسبة لواجباته المدرسية وأيامه فى المدرسة فقط ، وإنما امتدَّ تأثيرُ تلك الضربة الواحدة الى سلوكه العام فى الحياة بحيث يضبط مواعيده ، ويؤدى واجباته تجاه الناس فى حزمٍ وصدق واخلاص ، وهو كما قال يهُدى هذه التجربة التربوية الرائعة النافعة الى ابنه عبرةً له وتوجيهاً ..

وفى بريطانيا سُمِحَ للمعلمين بعقاب التلاميذ ضرباً ، وكان ذلك قد ألغى فى عام ١٩٥٣ - على أن يتولىً المدير نفسه ضرب الطالب المذنب .. أمام المعلم وليس له الحق الا فى ضربة واحدة[3] .

---

(١) الكاسانى - فى البدائع

(٢) اخبار اليوم ١٣٧٩/٢/٢٤ هـ

(٣) العمل التونسية / ١٣٧٩/٣/١٢ هـ .

ويقول الدكتور دوشى من علماء الامراض النفسية : ( إن الخبرة علّمتنا أن الحرية التامة ، والامتناع عن معاقبة الطفل مهما فعل .. إنما هو أسلوب خاطىء فى التربية إذ لابدَّ من اللجوء إلى القصاص الجسدى أحياناً مع الاتزان والاعتدال ) .

وقبل أن أختم بحثى فى « سياسة العصى » احبّ أن أقرِّر :

- أولاً أعنى بسياسة العصى : الضربُ مُطْلَقاً ، وإنما اقصد بها الأخْذ بالحزم فى تربية الاولاد فى المدرسة والبيت على سواء ، واستخدام العصى عند الضرورة اذا لم تنفع وسائل العقاب الأخرى مع ملاحظة اجتناب تحقير الولد وقت تأديبه .. فالمراد من العقوبة البدنية هو تنبيه الطفل أو الصبى الى أن سلوكه أو فعله لا يجوز له أن يعاوده مرةً اخرى .. وإذا عاوده فالقصاص واقعٌ لا محالة ..
- ثانياً : أن سياسة العصى ضرورة من ضرورات تقويم المجتمعات الانسانية فى القديم والحديث .

وقد شرّعها القرآن بالنسبة للزوجات الناشزات ، كما شرعها لتأديب العُصاة والفاسقين ، والقرآن لم يشرع حكماً أو عقوبةً الا كانا عْدلاً وفيهما مصلحةٌ .. بلا جدال ولا مِراء .

- ثالثاً : علينا قبل أن نردِّد ( هذا هو منطق التربية الحديثة ) أو ( هذا هو اتجاه العصر الحديث ) أن نعرف تجارب هذه التربية الحديثة فى البلاد التى صَدَّرتها إلينا واستوردناها منها .. لئلا نبدأ من حيث بدأوا ، وإنما نعتبر بما انتهوا إليه ، كما ينبغى الا نترك صوائبنا الثابتة إلى خواطئهم الحائرة ، وتظل مدارسنا ومجتمعاتنا حقول تجارب فاشلة باستمرار .
- رابعاً : علينا كذلك أن ندرك الفوارق الواضحة بين مختلف البيئات قبل تطبيق اى نظرية تربوية أو اجتماعية وافدة ، وأن نعود الى تراثنا العربى والإسلامى فى مجال التربية والتعليم فان فيه ثراءً يُغنى ودواء يشفى ، ونوراً يضىء ..

# الفصل الرابع

حوار مع المعلمين والطلاب حول :

- الكيف قبل الكم في التربية الإسلامية .. ؟
- التربية الإسلامية مثالية أم واقعية ؟
- التعلُّم الذاتي .. مفهومه وغايته !
- المطلوب في المعلم : الأخلاق مع الثقافة !



# الكيف قبل الكم في التربية الإسلاميّة

فى حوارٍ دار بينى وبين بعض زملائى فى الجامعة حول منهج التربية الاسلامية كان نصيبى من الحديث أن قلتُ لهم :

● إن الاسلام - بصفةٍ عامة - يهتم ( بالكيْف ) قبل ( الكمِّ ) فى نظامه الاقتصادى ، ونظامه الاجتماعى ، ونظامه السياسى ، بل حتى فى عباداتِه أيضاً . .

ونضرب لذلك مثلاً - فى عباداته يطالب الإسلام بصدق النية ، والاخلاص فى الاعتقاد والعمل ، ولايطالب بكثرة السجود والركوع ، أوإدامة التسبيح والتكبير دون أن تكون هناك نيةٌ صالحة ، وتَفكُّر فيمن نسجد له ونركع أو نُهلِّلَ ونكبِّر . .

وجاء فى الحديث الصحيح : ( إن أحب العمل إلى الله أدْومُه وإنَ قلّ ) أى ان المُهِمَّ فى عملِ المسلم الدوام والمواظبة ، وليس الكثرة مع الانقطاع . .

كما ورد أيضا قوله ﷺ : إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم[1] .

وفى المنهج الاقتصادى لايعارض الاسلام أن يعمل المسلم ليكسب كثيراً أوقليلاً ، ولايقيِّد سعيه ، ولايحدِّد طموحه - ولكنه يسأله : كيف يعمل ؟ وكيف يكسب ، من حلال أم حرام ؟ وهل يرابى ويحتكر ويغالى بالأسعار ؟ أم يتبع أحكام البيع والشراء كما شرَعَها الاسلام . . بحيث ينتفع هو ولايضر غيره ؟

---

( ١ ) رواه مسلم

وهكذا فى كافةِ اتجاهِ المنهجِ الاسلامى فى إصلاح الفرد ، والأسرة ، والمجتمع ، والدولة . .

وبعنينا فى هذه الندوة أو هذا الحوار : ان منهج التربية الاسلامية هو أيضاً يتجه الى الكيف قبل الكم ، فهو يريد من المسلم ان يتعلم ولو قليلاً من العلم بشرط أن يخُلص فى علمه ، وأن يطبق هذا العلم فى سلوكه ، وأن ينقله إلى الغير - أى أن الاسلام فى منهجه التربوى يطالب المسلم أن يتعلّم العلم النافع له وللآخرين ، لا العلم الكثير . . أو العلم الذى يضر أويُفسد أويُسىء . . كما هو الحال فى الحضارة الغربية المادية : حيث الفصل بين الدين وبين العلم والخلق ، وحيث العلم للمصلحة . . مصلحة الفرد ، ومصلحة الدولة الحاكمة ، والمستعمرة والمعتدية . .

ونجد التوجيه النبوى هنا حاضراً فى دعاء الرسول ﷺ : ( اللهم أسألك علماً نافعا ) . .

* * *

ولايتحقق مايرجى من نجاح فى عملية ( التعليم ) إلا اذا قامت على الأسس التالية :

أولا : تحديد الغاية . .

ثانيا : سلامة المنهج . .

ثالثا : اختيار المدرس. .

رابعا : استعداد الطالب . .

وغاية التعليم فى المدرسة الإسلامية على اختلاف مراحلها من الابتدائية حتى الجامعة - هى تكوين الفرد أوالمواطن العارف بحقوق ربه ووطنه وأمته ، القادر على أن يشارك بعلمه فى إقامة مجتمعه الإسلامى على أسس من المعرفة الصحيحة ، والإدارة الصالحة ، والتنظيم السليم ، والإنتاج النافع فى مجالات الزراعة والصناعة ، وحاجات المجتمع الأخرى ومقوّماته . .

أما اختيار المدرس فمهمٌ جداً لإنجاح عملية التربية والتعليم . . والاختيار يعنى الانتخاب الجيد الصائب ، بمعنى أن نختار المدرس الهاوى العاشق لرسالة التدريس الذى يجد فى استيفاء عمله لذةً كاملةً كلذة الطعام الهنىء ، وحلاوةً كحلاوة الشراب العذب الفرات ، وراحةً لضميره كراحة من يؤدى الأمانة لمن ائتمنه ، أويقضى الدّيْن لمن اقترض منه .

أما المدرس المحترف الذى يعامل طلابه كما يعامل التاجر المشترين ، فهو لايخلص فى تعليمه ولايصدق فى نصيحته ، ولايحرص على الشباب صلاحاً ونَجَاحاً . .

والأساس الثالث هو سلامة المنهج الدراسي ، ونعنى بالسلامة صحة المنهج واكتماله فيما يحقِّق تكوين الطالب عقلياً ونفسياً وجسدياً ـ تكويناً سليماً وقويماً وكريماً . .

وبعبارة أخرى نريد ـ أو يريد منهج التربية الاسلامية ـ أن تُعْنَى الدراسةُ بالجانب العلمى والجانب الخُلُقى . والايكون بين فروعها أو أجزائها أومراحلها تعارض أوتناقض ، أوتهديمٌ لبناءٍ سابق ، أوتشكيك فى نظريةٍ لاحقة . .

أما استعْداد الطالب للدراسة ، واستقباله لتوجيهات المدرس ، وارتياحه للجوِّ العلمى ـ فكل ذلك لايتأتّى إلا إذا أعان على تحقيقه البيتُ أباً وأماً وإخوةً . .

إن البيت ركن مُهمٌ ومرحلةٌ سابقة . . لكل أركان التربية الاسلامية ومراحلها ، وقد اسلفنا فى الفصل الأول ماجاء من تعليمات ومبادىء قرآنية ونبوية تؤكد أهمية الأسرة فى تربية الشباب وحقوق الأبناء والبنات على آبائهم وأمهاتهم . . فى الرعاية والتوجيه والمراقبة والتحذير . .

ونختم حديثنا حول منهج التربية الاسلامية بكلمة لسماحة الأستاذ أبى الحسن الندوى يقول فيها :

« إننى من المؤمنين بأن نظام التربية لباسٌ يجب أن يُفَصَّلَ على قامة البلد أو الأمة التى يراد تربية أبنائها وشبابها ، وعلى ملامحها الخاصة ، وعقائدها

العزيزة ، وآدابها المفضلّة ، وأهدافها التى تعيش لها وتموت فى سبيلها . إنه لباس يجب أن ينسجم مع أجوائها وبيئتها التى يعيش فيها ، والآداب والعادات التى تحتضنها والتاريخ الذى تغار عليه والقيم والمثل العليا التى تعشقها وتتغنَّى بها ، وأن سياسة التعليم : أو المناهج التربوية ليست بضاعةً تستورد من بلد إلى بلد ومن أمة إلى أمة ، أوشجرة تقتلع من أرض ، وتغرس فى أرضٍ أخرى » .

وبكلمة ثانية للدكتور (كونانت الأمريكى ) ، فى كتابه ( التربية والحرية ) : « إن عملية التربية ليست عمليةَ بيع وشراء ، وليست بضاعة تُصَدَّر إلى الخارج ؛ أوتستورد إلى الداخل . إننا فى فتراتٍ من التأريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية أو الأوربية إلى بلادنا الأمريكية » .

وبكلمة أحد أئمة التربية فى العهد الحاضر الأستاذ بيرسى نيان : ( إن أفضل تفسير لنظام التربية هى أنها السعى الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التى يؤمنون بها ، والنظرة التى ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربيةً تمكِّنهم من أن يكونوا ورَثَةً صالحين للتراث الذى ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم .



# التربية الإسلاميّة مثالية أم واقعيّة ؟

هذا الحوار دار بيني وبين الطالب الثانوي ( عمر حسن زمزمي ) وقد نشره بمجلة المدرسة ليطلع عليه زملاؤه الطلاب :

■ السؤال الأول : هل التربية هي الحياة ؟ أم التربية إعداد للحياة ؟ والجواب عليه : أن التربية إعْدادٌ للحياة . . لأنها تعني أن يهتم الآباء والأمهات أولا ـ والمعلمون ثانياً ـ بعملية التوجيه والتنبيه في سلوك الصبية والشباب بحيث يميزون بين الخطأ والصواب ، والشر والخير ، والباطل والحق ، والضلال والهدى ، . . فيما يتعلق بأمور دينهم من عقيدة وعبادة ، وما يتصل بعلاقاتهم مع الآخرين من أقربائهم وجيرتهم واصدقائهم : تعاملاً بالحسنى ، وتعاوناً على البر والتقوى . .

■ والسؤال الثاني : يقول فريق من رجال التربية : إن الانسان مفطور على الطبيعة الخيرة ـ ويعترض فريق آخر فيزعم أنه مفطور على الطبيعة الشريرة ـ ورسولنا عليه الصلاة والسلام يقول : ( كل مولود يولد على الفطرة . . فأبواه يهوِّدانه أويُنصرانه أويمجِّسانه ) أى إن الانسان محكوم بتربية أبويه ، فما رأيكم في هذه القضية المُختَلفَ عليها بين رجالِ التربية ؟ وماهو تفسيركم لقوله عز وجل : ﴿ قُتِل الانسان . . ماأكفره ﴾ . .

■ الجـــواب : إن الله تبارك وتعالى قد فطر الانسان أساساً وابتداءً على الإيمان والإحسان ، ومع ذلك زوَّده بغرائز قابلةٍ للتوجيه نحو الخير ونحو الشر في وقتٍ واحد .

واول العوامل المؤثرة وأقواها في توجيه غرائز الإنسان إلى احد الطريقينْ : هي بيئة الأبوين اى الأسرة فإما أن تبقى الفطرة واضحةً صافيةً عاملةً في حياة الفرد بما فَطرَها الله عليه من إيمان وإحسان ، وإما ان تغشاها غواشِي من عقائد

باطلة ، أوتحتجزها حواجز من أخلاقٍ سيئة ، ولكنها سرعان ماتعود إلى عهدها الأول والأصيل إذا وجدت التقويم المخلص ، والتنبيه الدائم . .

أما قوله عز وجل - فى سورة عبس ﴿ قُتِل الإنسان ماأكْفَره ﴾ فالإنسان هنا هو الإنسان الكافر بأنعم الله عليه أوالجاحد لآياته البينات فى السماوات والأرض ، وهو كقوله تبارك فى آيةٍ أخرى : ﴿ إن الإنسان لظلومٌ كفَّار ﴾ .

و( أل ) فى الإنسان هنا للعهد وليست للجنس - أى الانسان المعهود المعروف بكفره وجحوده . وليس المقصودُ جنْسَ الإنسان عامة . والدليل على ذلك ماجاء فى القرآن الكريم من استثناءٍ للانسان الصالح فى قوله من سورة العصر : ﴿ والعصر . . إن الانسان لفى خُسرٍ ، إلاالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحق ، وتواصَوْا بالصبر ﴾ وفى قوله من سورة التين : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون ﴾ وفى قوله من سورة الحجر : ﴿ ولأُغْوِيَنَّهم أجمعين . . إلاعبادك منهم المخلصين ﴾ . .

ثم نجد فى القرآن آيةً بيِّنةً عن كرامةِ الانسان ومكانته الممتازة عند خالقه العظيم على سائر مخلوقاته ، وهى قوله عز وجل فى سورة الإسراء : ﴿ ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا ﴾ .

● السؤال الثالث : ماهى الاساليب المثلى لتحقيق الأهداف التربوية الاسلامية ؟ الجواب : أن تعود المؤسسات التعليمية إلى المنهج التربوى الاسلامى ، الذى يمتاز على غيره من المناهج الوضعية بالتركيز على تربية العقيدة أولاً - ثم القدوة الحسنة من المعلِّم أوالأبِ ثانياً - مع الاخلاص فى التوجيه والتنبيه المستمر فى سلوك الصبية والشباب كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك فى الجواب على السؤال الأول .

● السؤال الرابع : ماهى الأسباب التى جعلتْ قِيمَنا وثقافتَنا الاسلاميةَ فى مرتبة ( المثالية ) دون ( الواقعية ) ؟ وهل ترون أن المدرسة وحدها هى المسؤولة عن ذلك ؟

● الجـــواب : فى مقدمة هذه الأسباب المسارعة المستمرة الى تقليد الأنظمة الأجنبية الغربية عن بيئتنا وطبيعتنا وعقيدتنا ، والأخذ بها ، ومشاورة الخبراء الأجانب الغرباء عنا أوالسعوديين الذين تلقوا تعليمهم فى أوروبا وأمريكا وطُبِخُوا هناك ، وصُنِعُوا على أيدى وأعين غير عربيةٍ وغير إسلامية . . ونسوا دينهم ، وجهلوا ثقافته وحضارته ، وهجروا قرآنه وسنته .

أما مسؤولية المدرسة فهى جزءٌ من كل لأن المسؤولية تشمل الـوزارة ـ ومستشاريها ـ وموظفيها ـ ومديرى التعليم المركزيين فى كل منطقـة . على أن المدرسة تستطيع فى نطاقها المحدود أن تقوِّم سلوك الطلاب الدراسى والاخلاقى خلال فصول الدراسة بالتوجيه والتنظيم على أسسٍ اسلامية .

● السؤال الخامس : يقول علماء الاجتماع وعلماء التربية بنظرية ( التغيير ) فى المجتمعات الانسانية . . فهل يقر ذلك ديننا الاسلام ؟ الجـــواب : إن القول بالتغيرُ صحيح . . ولكن فى حدود معينة فى الأشكال والأساليب مما يستلزمـه الأخذ بالمخترعات والمكتشفات الحديثة . أما العقائد والأخلاق فيجب الحفاظ عليها ، ولايقول بتغيرُّها أويدعو إلى ذلك الاالملحدون فى الدين ، والمفسدون فى الأرض ، والهادمون لبُنيان الإنسان ، وقد جاء فى الحديث : ﴿ الإنسان بُنيان الله . . وملعون من يهدم بُنْيَانه ﴾ .

● السؤال السادس : ماهى كلمتكم للقائمين على شؤون التربية والتعليم فى بلادنا ؟ الجـــواب : أن يتقوا الله فى فلذات أكبادنا وثمرات أفئدتنا . . فى شباب اليوم ورجال الغد ، فيخلصوا فى تعليمهم وتقويمهم . .

● السـؤال السابـع : ماهـو رأيكم فى أوضاعنـا التربـوية والتعليمية ماضياً وحاضراً ؟ الجـــواب : أسلفت الاجابة على هذا السؤال فى الفقرة الثالثة . . ولكنى أضيف إلى ماسبق أنه يجب أن نعود إلى نظام اليوم الدراسى الكامل ، والغاء عطلة الخميس ، والامتحان فى كل المقرر فى نهاية العام الدراسى . .

وشكراً للطالب السائل على أن أتاح لنا فرصة هذا الحوار التربوى النافع بعون الله وتوفيقه . . .

# التعَلُّم الذاتي ..

## مفهومُه وغايتُه !

دعيت إلى ندوة ـ فى جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة ـ مع بعض الأخوة من اساتذة الجامعة ، لتبادل الحوار حول (التعلم الذاتى ) وأهميته فى تخريج العلماء والأدباء والمفكرين الكبار قديماً وحديثاً(١) .

ونعنى ( بالتعلم الذاتى ) أن يستزيد طالب العلم معارف أخرى غير التى درسها أو يدرسها فى الجامعة ، أى لايكتفى بالمقررات المعينة له . .

ويعنى التعلم الذاتى أيضاً : ان يعوض الشاب أوالفتى الذى لم يستطع أن يستمر فى طلب العلم فى المدرسة أو الجامعة ـ لأسباب اقتصادية أو اجتماعية ـ مافاته بطلب العلم قراءة ودراسة وبحثا وسؤالا ـ عن طريق اقتناء الكتب ، أوصحبة بعض العلماء فى مايلقونه من دروس أومحاضرات عامة فى المساجد ، أوالمواسم الثقافية ، أوالندوات الفكرية . .

والنجاح فى تحقيق التعلم الذاتى يتم بالرغبة المخلصة فى طلب العلم ـ أيا كان نوع هذا العلم دينيا أولغويا أوتربويا أواقتصاديا أواجتماعيا ـ فالرغبة الملحة وحدها هى التى تدفع وتشجع الفتى أوالشاب الى المزيد من طلب العلم الذى يريده ، وإلى اجادة تحصيله ، وإتقان إجماله وتفصيله .

وقد اشترطنا للرغبة أن تكون مخلصة . . أى خالصة لله عز وجل . وبعبارة أخرى أن يكون طلب العلم للعلم نفسه ، لالتكسب مالى ، ولالالتماس منصب حكومى ، ولالمجرد الجاه والسمعة . وانما يتعلم الانسان مايريد أن يتعلمه لينتفع هو فى ذات نفسه ، ولينفع الناس بعلمه إذا عمل به : معلما أو طبيبا أو مهندسا أو

---

(١) الداعى الى هذه الندوة هو الدكتور سالم الثقفى وقد اسرك فيها معى الدكتور حسن

أوعالما أوغير ذلك من اعمال تحتاج الى خبرة ومعرفة بالأصول والقواعد اللازمة لهذا العلم أوذاك .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام ـ فى منهجه التربوى الحكيم القويم ـ يوجهنا الى المقام العظيم الذى ينبغى لمتعلم القرآن أن ينشده فى قوله ﷺ : ( خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه . . ) فإننا نستطيع أن نعمم هذه المكرمة التربوية الاجتماعية على كل علم نافع . . فنقول : خير الناس من تعلم اللغة العربية وعلمها للغير ، وخيرهم أيضا من تعلم الطب وعلمه ، وخيرهم من تعلم علم العقيدة الاسلامية وعلمها ، ومن تعلم علم الفقه الاسلامى وعلمه ، الى آخر العلوم الدينية والدنيوية النافعة الرافعة لبنيان المجتمع المسلم الرشيد السعيد .

وقد عاب القرآن الكريم ـ فى العديد من آياته ـ على اليهود أنهم كانوا يكتمون مايعلمون من حق فى ما أنزل الله عليهم من كتاب . حتى ولو سئلوا عن ذلك . كما عاب عليهم أن يحرفوا الأحكام والمبادىء والآداب التى تضمنتها التوراة .

فكتمان العلم وتحريفه ـ اتباعا للهوى أو ابتغاء للرشوة ـ يناقضان الاخلاص فى التعلم ذاتيا كان أم بواسطة المدارس والجامعات .

كما يقتضى الاخلاص فى التعلم الذاتى ونظيره : الايختلط بالرياء والسمعة ، فإنهما يحبطان أجر المتعلم ويبدلانه بهذا الأجر وزراً يُحَاسَبُ عليه فى آخرته .

لقد حدثنا الرسول ـ المربى العظيم لأمته ـ عن موقف المرائين بعلمهم أوعملهم يوم القيامة . حين يزج بهم فى النار فيقول ( العالم ) يارب أنى تعلمت العلم وقرأت القرآن فى سبيلك ويرد الله عز وجل عليه : بل فعلت ذلك ليقال أنك عالم ! وقد قيل . .

ويقول ( الشجاع ) : يارب إنى قاتلت فى سبيلك ـ فيرد الله عليه : بل فعلت ذلك ليقال : أنك شجاع ! وقد قيل . .

ويقول ( الجواد ) : يارب أنفقت مالى فى سبيلك ـ فيرد الله عليه : بل فعلت ذلك ليقال إنك جواد ! وقد قيل ـ ثم يؤمر بهم جميعاً فيطرحون فى النار .

وقد طَلَبَ ـ فى ختام الندوة ـ بعض الحضور نماذج من علمائنا الذين لم يطلبوا العلم فى مدرسة أوكلية أوجامعة . . فذكرت أئمة الفقه الأربعة أحمد والشافعى ومالكاً وأباحنيفة وامثالهم من الأئمة الآخرين ـ وأئمةَ التفسير : الطبرى وابن كثير ، والبغوى ، والقرطبى وأمثالهم ـ وائمة الحديث النبوى : البخارى ، ومسلماً ، والنسائى ، والترمذى ، واشباههم[(١)]

كل هؤلاء الأئمة وغيرهم : إنما طلبوا العلم بأنفسهم ، ولم يدرسوا فى مدارس أوجامعات ، وشغلوا كل أوقاتهم بالبحث والتفكير والتفقه حتى انتهوا إلى آراء وقواعد ومذاهب خاصة بكل واحد منهم .

ولدينا أمثلة اخرى ـ فى عصرنا الحاضر ـ وهم بعض اعضاء هيئة كبار العلماء التى تتولى رسميا اصدار الفتوى فى المشكلات والمسائل التى تعرض عليها من الدولة أومن الأفراد الآخرين وكذلك نجد أمثالَهم فى المجمع الفقهى التابع لرابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة . . فهم لم يتلقوا ثقافتهم الدينية فى معهد أومدرسة أوجامعة ، وإنما تفقهوا فى الدين وأصبحوا اعلاما فى الفقه الاسلامى نتيجة لدراستهم الذاتية للقرآن والسنة النبوية ومذاهب الفقهاء السابقين .

★ ★ ★

وقد ظن بعض الحضور فى الندوة أننا نعنى بالتعلم الذاتى أن يستغنى الطالب الصغير عن المعلم أوالمدرس . . على طريقة روسو فى كتابه ( أميل )[(٢)] .

قلت للمحاور الفاضل : لا . . لانعنى بالتعلم الذاتى أن يكون أويبدأ من مرحلة الطفولة اويستغنى طالب العلم عن صحبة الاساتذة والمدرسين . وإنما نعنى : استزادة هؤلاء الطلاب من العلم بعد إتمامهم الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ـ ولم تتح لهم الدراسة الجامعية ولم يكتفوا بها فازدادوا علماً . .

---

(١) الذى طلب هذه النماذج هو الدكتور سالم التقفى .

(٢) هو الدكتور بشير التوم من السودان .

فلابد لطالب العلم ـ فى البداية ـ من صحبة العلماء الكبار أوملازمتهم ، وسؤالهم والانتفاع بعلومهم وآرائهم الى ان يبلغ الطالب الفتى أوالشاب مبلغهم ـ سِناً وذِهْناً . .

وبعد . . فان التعلم الذاتى : يعنى عدم الاكتفاء بالمدرسة أوالجامعة ، أوالتعويض عنهما إذا لم يتيسرا للفتى أوالشاب . وهو طريق العلماء الأعلام المعروفين فى تاريخ الحضارة الاسلامية قديماً وحديثا .

كما يعنى التعلُم ـ سواء أكان ذاتياً أم بواسطة الغير ـ أن ينعكس نوراً وبركة وخيراً على الآخرين . فهذا هو منهج التربية الاسلامية : ( خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه ) وهو يسرى على كل العلوم الدينية والمعارف الدنيوية القديمة والحديثة على سواء .



# المطلوبُ في المعلِّم :

## الأخلاق مع الثقافة !

فى أعقاب محاضرة القيتها باحدى المدارس الثانوية ـ بالطائف ـ حول رسالة ( المعلم ) وواجب طالب العلم ـ تلقيت عدداً من الأسئلة من بعض الطلاب والمعلمين ، وأجبت عليها . وإنما اعيد الاجابة هنا ـ فى الآفاق الاسلامية ـ من أجل انتفاع المستمعين بها .

وكانت الاسئلة المطروحة فى سبعة أوراق ـ هى :

ـ أيها أفضل لمجال التدريس : مدرس ضعيف فى مادته العلمية ، ولكنه ذو خلق كريم .. أم مدرس قوى فى مادته العلمية ولكن لاأخلاق له ؟

ـ أن بعض المدرسين يشتمون الطلاب أمام زملائهم بسبب خطئهم فى الاجابة على اسئلة المدرسين . . الأمر الذى يترك فى نفوس الطلاب كراهية للمدرس ودُروسِه معا ، ويؤدى إلى سوء فهم الطالب للدرس وإهماله ـ فما رأيكم فى معالجة هذه الظاهرة فى محيط التعليم ؟

ـ قلتم فى محاضرتكم : أنه يجب على المعلم أن يمارس التعليم كهواية يحبها حباً جماً ، لاكحرفة يقصد منها الكسب وحده ، والواقع إننا نحن الطلاب نتعلم للتكسب مستقبلا . . فكيف نطالب المعلم بان لايحرص على التكسب من وراء عمله ؟

ـ جاء فى الحديث النبوى : ( إنما بعثت معلماً ) فهل معنى ذلك أن المعلم يجب أن يكون له دور فى كل مجالات الحياة . . كما هو الحال بالنسبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ـ ماهو واجب المعلم نحومايراه من عادات سيئة يباشرها الطلاب : كالتدخين ، والتشبّه بالشباب غير المسلم فى لباسه وكلامه وسلوكه بصفة عامة .

ـ العصى لمن عصى . . هذا المثل الذى نردده فى مجتمعنا كثيرا ـ هل ترون استعمال المدرس للعصى مع العصاةِ من طُلابه . . رغم مانعرفه من رفض مبادىء التربية الحديثة لهذا الأسلوب التربوى القديم ؟
ـ مارأيكم فى مستوى التعليم الابتدائى فى الوقتِ الحاضر ؟

* * *

هذه المسائل التربوية والتعليمية طرحها الحضور من معلمين وطلاب ـ فى ختام المحاضرة . وكانت اجابتى عليها على النحو التالى :

● بالنسبة للمسألة الأولى .. نفضل المعلم الذى يجمع بين اتقانه للمادة التى يقوم بتدريسها ، وبين السلوك الحسن الكريم ، أى يجمع بين الكفاية والهداية : الكفاية العلمية والهداية النفسية .

وإذا كان هناك مدرس قوى فى مادته وضعيف فى خلقه ، وآخر ضعيف فى مادته قوى فى خلقه . . فالمسألة تحتاج إلى نظر : هل المدرس القوى مادة العوج سلوكا يؤثر فى طلابه اخلاقيا . . بمعنى هل يغريهم بقوله أو فعله أن ينحرفوا معه فى سلوكه السيىء ، أم أنه يقوم بتأدية واجبه التعليمى دون تأثير خلقى على الطلاب ؟

إذا كان المدرس على الحالة الأولى فهو مفسد لأخلاق الشباب ، وضره أكثر من نفعه ، وينبغى ابعاده عن التدريس . وإذا كان على الحالة الثانية . . فلا بأس أن ننتفع بعلمه واتقانه لعمله مادام سلوكه المنحرف خاصا به وغير معلن بين أيدى الطلاب ، ولامؤثر فى سلوكهم . .

ولكن ـ على أية حال ـ نرى أن المعلم قدوة لطلابه فيجب أن يكون حسن السيرة ، طيب الخلق ، حكيم التعامل مع تلامذته . والطلاب سريعو التأثر بأساتذتهم ، لأنهم يرونهم المثل الأعلى فى محيطهم الدراسى .

ونفضل المدرس ذا الأخلاق الكريمة ، الذى يعطى تلامذته الأسوة الحسنة من سلوكه الطيب ، مع ضعفه فى مادته العلمية ـ على المدرس القوى فى مادته ،

وهو سيىء السلوك ، ومفسد لطلابه بما يرون من سوء عمله ، أويسمعون من بذىء كلامه . .

ولذلك لايليق بالمعلم ـ وهذا جواب على المسألة الثانية أن يشتم الطالب إذا اخطأ فى اجابته على مسألة سأله اياها . . أوحتى لو تصرف الطالب أمام المدرس تصرفا غير حميد ، لأن واجبه فى الحالين أن يكون كريم الرد على الطالب ، وأن يصوب له خطأه ، ويحذره من عاقبة إهماله لدرسه ، كما يوجهه الى السلوك الجميل إذا رأى منه غير ذلك . .

إن مبادىء التربية الاسلامية توجب على الدعاة والمربين والمعلمين والآباء وأولياء الأمور بعامة : أن يكونوا قدوة كريمة لمن بين أيديهم . . من يدعونهم إلى الخير ، أو يعلمونهم أمراً من دينهم أودنياهم ، أويتولون شأناً من شؤونهم ـ قدوة كريمة فى السلوك الشريف واللسان النظيف . .

بل يُطْلَبُ الى المعلم ـ وهذا جواب على المسألة الخامسة ـ ان يتجاوز الاستقامة فى سلوكه الى تحقيقها فى سلوك طلابه . . فاذا رأى من أحدهم اعوجاجاً اوانحرافاً فى قول أو عمل : كالتدخين أوالتشبه بأخلاق الشباب غير المسلم فى لباس أوحديث . . وجب عليه أن ينصحه باجتناب هذه المساوىء والمآثم ، وبيان مضارها الصحية والنفسية والاجتماعية . .

ونقول ( مآثم ) لأن المسلم محظور عليه أن يضر نفسه كما هو ممنوع من أن يضر غيره . والتدخين مضرة عظمى لنفس المدخن ، لأنه يسببُ له أمراضا صدرية حذر منها الأطباء العصريون ، وشهدت بها الجمعيات الطبية فى أوروبا وأمريكا . وهى البلاد التى تنتج هذا ( الوباء ) وتصدره إلى جميع أقطار العالم ، وتجنى من ورائه أرباحا كثيرة وفيرة . .

كذلك التشبهُ بعادات غير المسلمين . . يكون إثماً ، لأن الرسول ﷺ يقول : ( من تشبه بقوم فهو منهم )[1] ويقول : ( ليس منا من تشبه بغيرنا ) . . وهناك أحاديث أخرى يحثنا فيها الرسول عليه الصلاة والسلام

(١) رواه أبو داود

بمخالفة اليهود والنصارى والمشركين فى عاداتهم وأخلاقهم . .

أما قوله ﷺ : ( إنما بعثت معلما )[1] فهو بيان لحقيقة النبوة ، ووظيفة الرسالة بأنها تعليم وتربية للناس ، وليست مجرد قداسة ورئاسة ، كما أنه ـ أى الحديث النبوى ـ بيان لشرف المعلم ومقامه المحمود فى المجتمع الانسانى . . ويوضح هذه الحقيقة الحديث النبوى الآخر : ( العلماء ـ ورثة الأنبياء ) والحديث الثالث : ( ان الملائكة لتصلى على معلمى الناس الخير ) . وهذا التكريم الاسلامى للعلم والعلماء يؤكد لنا أن ( الاسلام ) دين العلم النافع والخلق الكريم . .

ومن هنا ـ وهذه اجابة على المسألة الثالثة ـ وجب على المعلم أن يكون محبا وهاويا بكل قلبه وجوارحه لوظيفته التى ورثها عن الأنبياء ـ كما هو مفهوم الحديث النبوى ـ وألايباشرها بمشاعر المتكسب المحترف ، المهتم بالأجر وحده دون العمل . .

ففى التوجيه النبوى التربوى ( إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه )[2] ولايتقن العامل عمله إلا إذا احبه حبا جما ، ومن هنا قلنا أن المعلم يجب أن يمارس عملية التعليم هاوياً لامحترفاً أومتكسباً .

ونتناول الآن المسألة السادسة التى يقول صاحبها مامعناه : أن المثل الذى كنا نردده : ( العصى لمن عصى ) أصبح مرفوضا فى منهج التربية الحديثة ـ فهل ترون أن تطبيقه ضرورى فى عصرنا الحاضر .

● والجـــواب ـ كما أسلفناه فى محاضرات تربوية سابقة ـ أن لكل مقام مقالا ، ولكل حالة لبوسها . . والناس صغارا وكبارا ، نساء ورجالا : مختلفون فى طبائعهم ومذاهبهم الاخلاقية ، ومتفاوتون فى مدى استعدادهم لقبول النصائح ، والاستجابة لطاعة النظام أوالقانون . .

---

( ١ ) رواه الترمذى

( ٢ ) رواه البيهقى وابن ماجه .

ومن هنا ينبغى أن يعامل كل إنسان بما يستحق من أسلوب أوطريقة يستجيب لها ، أو هى تجدى فى اصلاحه وتقويمه.. فليس كل الطلاب تؤثر فيهم الكلمة الطيبة ، أويستجيبون للموعظة الحسنة . وأنا كمدرس - على المستوى الجامعى للطلاب - اعرف ذلك جيدا ، وأدركه حقيقة واقعة ، وأراه بين يدى فى الطلاب الذين تعاملت معهم أكثر من عشر سنوات . .

فالعصى لمن عصى . . أى لمن أصر على عناده وفساده ، فلابد له من عقاب - مادى يردعه ، وهو فى الوقت ذاته ينفعه . والمدرس مسؤول عن التفريق فى الطلاب بين من تؤثر فيه النصيحة أوالملامة أوالنظرة الساخطة ، وبين من لايستجيب إلاللعقاب المادى - أى ( العصى ) كما أسلفنا - ومن الخطأ الجسيم أن يسوى المدرس فى التعامل مع طلابه ومؤاخذتهم على تقصيرهم بين هذا وذاك . وما أبلغ المُتنَبِى فى نظرته إلى مثل هذا الموقف حين قال : .

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف فى موضع الندى !

وقد شرعت كافة القوانين البشرية العقوبة المادية للمخطئين من الكبار . . لماذا ؟ لأن الكثير من النفوس لاترجع عن غيها وبغيها إلابذلك . والاسلام - وهو القانون الالهى الأعلى والأعدل - أقر العقوبة المادية للمخالفين زَجْراً للمخالف نفسه ، وتحذيراً لغيره من الخطيئة نفسها، وما ابلغ الحكمة المأثورة : ( إن الله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن ) .

نقول ذلك مع مايجب ملاحظته من الفرق الواضح بين مجتمع الطلاب والمجتمع العام . . من حيث مستوى المخالفة والمؤخذة عليها ، وإنما ذكرنا قانونية مؤاخذة الكبار ماديا - أى بدنيا - للتذكير بأن الصغار أولى بالضبط والحزم ، والتنبيه الجاد الى معرفة الحدود والحقوق .

● كما ينبغى أن نلاحظ أن منهج التربية الاسلامية أجاز ضرب الأطفال إذا بلغوا العاشرة من عمرهم إذا لم يقيموا الصلاة بعد ان اكتفى بالموعظة منذ السابعة : ( مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر . . )

كما أجاز النظام الاجتماعى الاسلامى ضرب الزوجة المعاندة المصرة على مشاكسة زوجها ، بعد أن اقتصر قبل ذلك على الموعظة ثم الهجر فى المضجع .

وهكذا نرى انسانية المنهج الاسلامى فى مجال الأسرة أزواجا وأطفالا ـ حيث يوجه اولا الى المؤاخذة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، وحين لايجدى ذلك فلابد من المؤاخذة المادية دون انتظار . .

* * *

● اما المسألة السابعة . . عن مستوى التعليم الابتدائى حاضراً وماضياً ـ فالجواب عليها من واقعنا نحن الجيل الغابر ، فقد كان مستوى التعليم الابتدائى ـ على عهدنا ـ قويا فى منهجه ومادته . . ويكفى للدلالة على ذلك ان المتخرج من المرحلة الابتدائية كان يستطيع ان يقوم بأى عمل إدارى ـ كتابى أوحسابى ـ بصورة جيدة .

والآن نرى المتخرجين من المرحلة المتوسطة والثانوية ضعافاً فى أصول القراءة والكتابة ـ إنهم يقرأون خطأً ، ويكتبون خطأ ، إملاؤهم وإنشاؤهم سيئان ، ومنطقهم يصوج بالكلمات والجمل لحناً وتحريفاً . وماتخطه أيديهم اشد سوء .

والسر فى ذلك : العناية العظمى بالعلوم الدينية واللغوية ـ على عهدنا ـ ونظام اليوم الكامل ، والسنة الدراسية الكاملة ، واخلاص المدرسين ، وفراغ اوقات الطلاب من لهو اجهزة الاعلام ولغوها ـ اذاعة وصحافة وتلفازا .

وترد هنا مسألة اخرى لأحد الحضور حيث يقول : ألا ترون أن عدم استجابة الشباب للتعاليم الاسلامية ، وانصرافهم الى تقليد الحضارة الغربية ـ انما هو نتيجة عجز العلماء عن اقناعهم واعطائهم القدوة الحسنة من أنفسهم ؟

● قلت : لاشك أن الشباب بحاجة إلى الاقتناع بما يلقى عليه من معارف وتجارب ، والى القدوة الطيبة من آبائهم ومعلميهم وقادتهم . والعلماء فى المجتمعات الاسلامية مدعوون للنزول الى ميادين الشباب ، وفتح صدورهم لحاجاتهم ومشكلاتهم وقضاياهم ، والحديث معهم بأسلوب العصر ، وعدم

التعصب والتشديد فى الأمور الفرعية أوالثانوية ، وتركيز الاهتمام على العَظَائِمِ والعَزَائِمِ ، والاستجابة للنقاش والحوار ، والأخذ والرد معهم من أجل اقناعهم بسلامة المنهج الاسلامى ، وشموله لكل مطالب العصر من أنظمة وأحكام وحلول كافية شافية .

وقولى بوجوب الاهتمام بالعَظَائم والعزائم أولاً ـ لايعنى اهمال الصغائر ، والسكوت عليها ، وإنما يعنى عدم التركيز عليها وحدها دون المهمات من القضايا والمشكلات . .

● إن العلماء مدعوون ـ كما أسلفت ـ للنزول إلى الميدان ، ومحاورة الشبان بصدور مفتوحة ، ووجوه مشروحة ، ومحاولة اقناعهم بالمثال والبرهان . . بالمثال الجاذب والبرهان الغالب ، والافلن يقتنع الشبان بالمواعظ والنصائح المرسلة عن طريق الصحف والاذاعات ، دون أن يجتمعوا مع من ينصحهم أويعظهم ويستمعوا إلى اقواله ، وينظروا إلى أحواله .



